أقدم النّصوص المسيحيّة

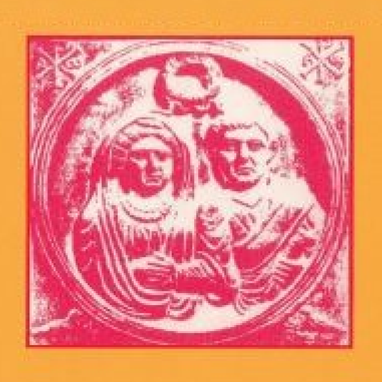
•

نصوص متنوّعة

رسائل

غريغوريوس النيصيّ

(٣٣٥ - ٣٩٤؟)



منشورات المكتبة البولسيّة

رسائل

غريغوريوس النيصّيّ

(٣٣٥ - ٣٩٤؟)

طبعة أولى

٢٠٠٤

●

مَنشُورَاتُ المَكْتَبَة البُولسِيَّة
جونيه شارع القدّيس بولس - ص.ب. ١٢٥
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٠٩/٩٣٣٠٥٢ - فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت - شارع لبنان - هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ - تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحْلة - الحمراء بلازا - تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

أقدم النّصوص المسيحيّة

•

نصوص متنوّعة

رسائل

غريغوريوس النيصّيّ

(٣٣٥ - ٣٩٤؟)



تعريب

الأب حنّا الفاخوري

منشورات المكتبة البولسية

غريغوريوس النيصيّ (٣٣٥ - ٣٩٤؟)

أوّلاً: حياتُه

ليس في ما كتبه غريغوريوس وما كتبه معاصروه ومؤرّخوه ما يُطلعنا بدقّة على مراحل حياته، وإنّما هنالك إشارات وتلميحات نلتقطها في بحثنا، كما نلتقط ما توحي به المقارنات والمقاربات، وما لم يُفصح به غريغوريوس إفصاحًا تامًّا. وقد عرفنا أنه من سُلالة كريمة أتينا على ذكرها في مقدّمة «حياة موسى». وممّا لا شكّ فيه أنّ هنالك شخصين كان لهما أثر عميق في نفس غريغوريوس، وفي توجيه حياته، هما شقيقته ماكرينا، وشقيقه باسيليوس الذي كثيرًا ما دعاه في مؤلّفاته «أبًا ومعلّمًا». وممّا لا شكّ فيه أيضًا أنه فقد أباه في حداثته وأن باسيليوس، أخاه البكر، قد تولّى أمره، ولكنّنا لا نعرف ما كان الفرق بينهما في السنّ، ولا هل تبع دروس أخيه عندما كان يُعلّم في قيصريّة كبّادوكيّة سنة ٣٥٦. والذي يبدو من آثاره أنه كان ضليعًا من أساليب البلاغة، وذا إلمام واسع بالفلسفة وبشتّى علوم عصره من مثل العلوم الطبيعيّة، والهيئة، والطبّ، مع أنّه لم يبلغنا أنّه تردّد على مدارس قيصريّة والقسطنطينيّة وأثينة كأخيه باسيليوس وكصديقهما النَّزينزيّ.

وُلد غريغوريوس ما بين ٣٣٥ و٣٤٠ في قيصريّة كبّادوكية، وما إن شبّ حتّى مال إلى الخدمة الكنسيّة وصار شمّاسًا قارئًا، وعبثًا حاول باسيليوس أن يشدّه إلى أنّسي، فيكون له عونًا في حياة الجماعة الرُّهبانيّة؛ وعندما أُلغي قرار يوليانس المدرسيّ سنة ٣٦٥ عاد غريغوريوس إلى مهنة

الكلمة البليغة، وفي بحثه عن «البتوليّة» أشار إلى أنّه أصبح غير مؤهّل لأن يشترك في ثمار التّبتُّل، وقد استدلّوا بذلك على أنّه تزوّج، وقيل إنه اقترن بفتاة اسمها ثيوسابية ظلّ وفيًّا لها سحابة حياته، وأنّها توفّيت سنة ٣٨٥ فوجّه إليه غريغوريوس النّزينزيّ رسالة تعزية.

عندما قُسِّم إقليم كبَّادوكية سنة ٣٧٢ عمد باسيليوس إلى تدعيم جماعة النّيقويّين بزيادة الكراسي الأسقفيّة، وجنّد للدفاع عن العقيدة جماعة من ذوي العقول الثاقبة والإيمان الصُّلب، ودعا أخاه غريغوريوس إلى أُسقفيّة نيصُّس، فقبل الدّعوة على مضض، إلاّ أنّ سِني أسقفيّته السّبع الأولى كانت حافلة بالصّعوبات، وقد كتب إليه باسيليوس يأخذ عليه سذاجته في موضوع السياسة الكنسيّة والعلاقات العامّة (الرسالتان ٥٨ و١٠٠) ويعدُّهُ مفتقرًا إلى الخبرة؛ وهذا ما ألّب عليه الأريوسيّين فاتّهموه بتبذير أموال الكنيسة وبأنّ رسامته الأسقفيّة لم تكن شرعيّة، وفي مجمع دعا إليه حاكم البنطس أُسقِط من كرسيِّه ونُفي، ولبث في منفاه إلى أن مات فالنس وضعفت حدّة الأريوسيّة، فعاد إلى كرسيِّه في آخر سنة ٣٧٨، واستُقبل بكلّ حفاوة.

في سنة ٣٧٩ توفّي باسيليوس فكان على غريغوريوس أن يقوم بجميع مهامّ أخيه الرّهبانيّة واللاهوتيّة والكنسيّة، فتألّق نجمه، وانقلبت حاله من ضعفٍ إلى قوّةٍ، وظهر سياسيًّا كنسيًّا يُطلب لكلّ كبيرة وصغيرة، وخطيبًا مُفوّهًا، ولاهوتيًّا خبيرًا حاذقًا في قضايا العصر العقائديّة، وواعظًا مسموع الكلمة، استطاع، إلى آخر حياته، أن يُقيم علاقات وثيقة مع العاصمة، القسطنطينيّة، ومع البلاط الإمبراطوري. وقد اختير لتأبين الأميرة بولخاريا ثم الإمبراطورة فلاسيلاّ.

في مجمع أنطاكية (أيلول – تشرين الأوّل ٣٧٩) الذي اشترك فيه، عُهد إليه في أن يزور كنائس البنطس وأرمينية؛ وفي هذه الأثناء اختير متروبوليتًا لسيبسطية فاضُطرّ أن يُقيم في تلك المدينة ردحًا من الزمن إلى ان انتَدبَ لها أخاه بطرس أسقفًا أصيلاً. وفي مجمع القسطنطينيّة (أيّار – تمّوز ٣٨١) لفت الأنظار بخطابه اللاهوتيّ العقائديّ البليغ، وكان منذُ ذلك الحين في عِداد الأساقفة الذين يُعدُّون أركان الأرثوكسيّة الصحيحة. وقد طلب إليه المجمع أن يتوجّه إلى بلاد العرب للتوفيق بين أُسقفَيْنِ يتنازعان كرسيّ بُصرى، ولمعالجة بعض البِدَع المتفشيّة هناك. وفي طريق عودته إلى أبرشيّته توقّف في أورشليم وزار الأماكن المقدّسة، وكان في نيصُّس نحو أواخر سنة ٣٨١.

وفي سينودس القسطنطينيّة المُنعقد سنة ٣٨٣ ألقى خطابه الشهير عن «ألوهة الابن والروح القدس». وقد ورد اسمه في لائحة المشتركين في سينودس القسطنطينيّة ٣٩٤، وفي أواخر أيّامه انقطع إلى وضع القواعد الروحيّة للحياة الرُّهبانيّة التي نظّمها أخوه باسيليوس، وتوارى ظلّه إلى أن توفّي سنة ٣٩٤.

ثانيًا: أعمالُه

لغريغوريوس النيصّي آثارٌ كثيرة ومتنوّعة ظهرَ فيها رجلَ ثقافةٍ فلسفيّـةٍ وعلميّةٍ واسعة، ورجلَ عقلٍ متوهّجٍ، فكان من ألمع اللاهوتيّين، كما كان من أسمى النفوس روحانيّةً، ومن أعمق الناظرين في الحياة الصُّوفيّة والنُّسكيّة، وقد يكون أثقب نظرًا من باسيليوس ومن غريغوريوس النّزينزيّ في الحقلين الفلسفيّ واللاهوتيّ، وله الفضل الكبير في معالجة اللاهوت بنظرة فلسفيّة، كما كان له تقدير عظيم جدًّا في البلاط الامبراطوريّ

لبلاغته التي نهج فيها المنهج الذي شاع في السُّفسطائيّة الثانية، سُفسطائيّة هيماريوس وليبانيوس، وإن لم يَتمشَّ ونفسيّتَهُ كخطيب.

لأفلاطون وأفلوطين والرواقيّين أثرٌ ملموس في كتابة غريغوريوس، وقد عمل على نقل الفلسفة القديمة من مستواها الوثنيّ إلى المستوى المسيحيّ. ومع أفلوطين الروحانيّ تمكّن من وضع أُسُس التصوُّف المسيحيّ، وهكذا تنصّرت الفلسفة الإغريقيّة، واكتسبت امتدادًا جديدًا وروحًا جديدة، كما اكتسب التصوّف المسيحيّ عمقًا قامت على أساسه الحياة الرُّهبانيّة والنُّسكيّة في فورة انتشارها وأفق امتدادها.

وإنّه لمن الصعب جدًّا تحديد تاريخ آثار غريغوريوس النيصيّ كما كان من الصعب اللحاق به في شتّى مراحل حياته، ولكن أكثر المؤرّخين يرون أن معظم أثاره ظهر بعد وفاة باسيليوس (٣٧٩)، وهم يختلفون في نظرتهم إلى أسلوبه الكتابيّ، فمنهم من ذهب إلى أن أسلوبه ثقيل ومعقّد، ومنهم من رفعه إلى أعلى مستوى ولمس فيه روعة الثقافة القديمة في تناغم عباراتها وتساوق موسيقى ألفاظها. وعلى كلّ حال فغريغوريوس شاعر وفيلسوف وصوفيّ. وهو كما قيل «شاعر أفكار».

١. الأعمال العقائديّة

ء) **ضدّ أفنوميوس** أربعة كُتب فنّد فيها غريغوريوس آراء أفنوميوس، ففي الثلاثة الأولى دحض ما جاء في كتابه «دفاعٌ أبعدُ من الدفاع» ودافع عن باسيليوس وأسقط حججَ الأريوسيّة؛ وفي الرابع فنّد ما جاء في «الاعتراف الإيمانيّ» الذي قدّمه أفنوميوس لثيودوسيوس في مجمع القسطنطينيّة الذي عُقِد سنة ٣٨٣.

بـ) ثلاثة كتب هاجم فيها الأبوليناريوسيّين، وكرّر فيها أنّ ما لم يتّخذه الكلمة لم يفتدِهِ (يعني الطبيعة الإنسانيّة الكاملة).

جـ) كتاب التعليم الكبير

من بعد «مبادئ» أوريجانس يُعدّ هذا الكتاب أوّل محاولة لاهوتيّة شموليّة. إنّه خلاصة العقيدة المسيحيّة، ويُعتقد أنه ظهر نحو سنة **٣٨٦**، اعتمد فيه غريغوريوس أيضًا على الماورائيّات، ولم يقتصر على مُعطيات الكتاب المقدّس؛ فقدّم «للرؤساء الكنسيّين» نموذجًا في بسط أهمّ العقائد المسيحيّة والدفاع عنها لدى الهراطقة واليهود والوثنيّين. فهذا البناء التّعليمي والدفاعيّ والقائم أيضًا على الحجّة العقليّة، لا يتقبّل نظريّات أوريجانس بطريقة عشوائيّة، وإن اعتمد عليها بعض الاعتماد. إنّه ينحو نحوًا واقعيًّا في موضوع قيامة الأجساد، متّبعًا في ذلك رأي مثوديوس الشهيد خصم أوريجانس.

يعالج غريغوريوس في القسم الأوّل وحدانيّة الله في ثلاثة أقانيم؛ وفي القسم الثاني الخطيئة، والتجسّد، والفداء؛ وفي القسم الثالث المعموديّة والإفخارستيّا.

د) الحوار مع ماكرينا

كانت ماكرينا على شفا الموت (حوالى كانون الأوّل **٣٧٩** أو في أوائل كانون الثاني **٣٨٠**) وقد جعل غريغوريوس على لسانها آراءَهُ في النّفس، والموت، والخلود، والقيامة...

وفي ما بقي من آثار غريغوريوس العقائديّة نراه، في أربع رسائل، يدافع عن عقيدة الثالوث، ويبيّن العلاقة بين الأقانيم الثلاثة، وفي أنّ

الثلاثة واحد في الجوهر. أمّا الرسالة **١٨٩** فهي منسوبة خطأً إلى باسيليوس، وفيها يُظهر غريغوريوس ألوهة الروح القدس. وهناك حوار مع فيلسوف وثنيّ ينقض فيه غريغوريوس مذهب الجبريّة الفلكيّة.

٢. الأعمال التفسيريّة والوعظيّة

ء) لغريغوريوس مؤلّفان مهمّان في **تاريخ الخليقة: خلق الإنسان، وتفسير الأيّام الستّة** الدفاعيّ، وضع الأوّل منهما وقدّمه لأخيه بطرس بداعي الفصح، وأتمّ فيه **الأيّام الستّة** لباسيليوس، وقد نهج فيه، على غير عادته، نهج باسيليوس متقيّدًا بالمعنى الحرفي، ومبتعدًا عن التفسير المجازي والرّمزيّ الذي شاع في سائر أعماله التفسيريّة.

بـ) ثماني مواعظ في **سفر الجامعة** يدعو فيها غريغوريوس النّفس إلى التعالي فوق الحواسّ، وإلى الزُّهد بجمالِ الدّنيا، وإلى العبادة الصامتة للقدرة الإلهيّة في هيكل النفس؛ وخمس عشرة موعظة في **نشيد الأناشيد**؛ يرى فيها الواعظُ قصّةَ اتحاد النفس بالله في زواج سرّيّ؛ وهو يُحلّق تحليقًا رائعَ البيان، بنفس يغمرها الحبُّ الإلهيّ، موضحًا انطلاق النفس النشوى بحبّ الله، في تصعيدها غير المحدود إلى الله غاية وجودها. **وعدّة مواعظ في المزامير** يبيّن غريغوريوس أوّلاً هدفَ المزامير ونظامها، ثم يفسّرها تفسيرًا رمزيًّا؛ والمزامير في نظره خمسةُ كُتب تُمثّل الدرجات الخمسَ في سُلَّم الكمال، ولعناوينها معان روحيّة يبرزها في تقوى وورع. وخمس مواعظ في **الصلاة الربّية**؛ وثماني مواعظ في **التّطويبات** يسعى غريغوريوس إلى أن يكتشف فيها ثماني درجات في سلّم الكمال التي تقود إلى المشاهدة السعيدة. أمّا الصلاةُ الربيّة فهو يُقدّم لها بكلام على ضرورة الصلاة، ثم يفسّر طلباتها تفسيرًا أخلاقيًّا في غالب الأحيان؛

وموعظتان في **رسالة بولس الأولى إلى الكورنثيين**. وإننا سنتوقّف عند أشهر عمل تفسيريّ لغريغوريوس هو حياة موسى.

جـ) حياة موسى

• تاريخ وضع الكتاب

وضعَ غريغوريوس هذا الكتاب نحو سنة **٣٩٢** عن طلب أحد الرُّهبان، وكان قد تقدّم في السنّ، يدلُّ على ذلك شيبُ شعره الذي يشير إليه، والحسدُ الذي تعرَّض لِسهامِه وتحدّث عنه بمرارةٍ، والصّراعات المسيحانيّة التي نشبت في أواخر حياته وتركت أصداءً واسعةً في الكتاب، وهذا النّضج الكامِلُ في التعليم الروحيّ الذي تسيطر عليه فكرة الكمال في كونه نموًّا متواصلاً.

• مضمون الكتاب

في الكتاب قسمانِ، قسمٌ تناول فيه المؤلّف خلاصةَ الأحداث التي رافقت حياة موسى مُستندًا فيها إلى رواية سِفْرَي الخروج والعدَد، وناهجًا نهجَ باسيليوس وفيلونَ اليهوديّ، أي مُعتمدًا حرفيّةَ التاريخ في نفسيره، وراميًا أبدًا إلى استخراج المعاني الأخلاقيّة التي تفيد وتَبني، وكأنّ حياةَ موسى سيرةُ أحد القدّيسين. وغريغوريوس يُضخِّم الأحداثَ بعض التّضخيم لإبراز الفائدة الأخلاقيّة، ويشدّد على الظّاهرات العجائبيّة من مثل العلّيقة المُلتهبة، ويُندّد بالتفسيرات الطبيعيّة التي تُقصي الجانب الخارق، كتفسير تكاثُر الضفادع بالتكاثر الطبيعيّ لا بأمر من موسى؛ ويُسقط الجزئيّات الشائنة أو يُضمّنها معاني لائقة، كاستيلاءِ العِبرانيّينَ

على أموال المصريّين. وهكذا فالقسمُ الأوّل من الكتاب تفسيرٌ حرفيّ يحمل على التقوى.

أمّا القسم الثاني ففيه جوهرُ الكتاب حيث تصبح حياةُ موسى صورةً للترقّي في مَدارج الكمال، ومثالاً للنفس في مسيرتها الصّوفيّة. وقد نهج غريغوريوس في هذا القسم نهجَ فيلون في التفسير الروحيّ، وأضاف إلى طريقة فيلون طريقة التفسير الرمزي لِسفر الخروج كما نرى بعضًا من ذلك في العهد الجديد ولاسيّما رسائل القدّيس بولس؛ فأحداث سِفر الخروج فيها لم تعُدْ صورًا لحقائق روحيّة وحسبُ، ولكنّها تصبح صورًا لحقيقةٍ تاريخيّةٍ وروحيّة هي المسيح والنظام الجديد الذي أقامه. وهكذا فأهمّ الأحداث في سفر الخروج مذكورة في الإنجيل ومطبّقة على المسيح، من مثل الحيّة النُّحاسيّة، والمنّ، والحمل الفِصحيّ، والعمود النيّر؛ وهذه الطريقة الرمزيّة فاشية في كتابة بولس، والأمثلة كثيرةٌ نَقتصر منها على قوله: «لا أريد أن تجهلوا، أيّها الإخوة، أنّ آباءكم كُلّهم كانوا تحت الغمام، وكلَّهم جازوا في البحر، وكلَّهم اعتمدوا في موسى في الغمام وفي البحر، وكلّهم أكلوا الطعام الروحيّ نفسه، وكلَّهم شربوا الشراب الروحيّ نفسه؛ فإنّهم كانوا يشربون من صخرة روحيّة تتبعُهم، وهذه الصخرة كانت المسيح... ولقد جرتْ هذه الأمورُ ليكون لنا فيها عِبرةٌ» (١ كور١٠: ١-٦).

وممّا لا شكّ فيه أنّ أوريجانُس سبق غريغوريوس إلى هذا النوع من التفسير، ولكنّ غريغوريوس لم يُغرق في التفصيل والتأويل كما فعل سابقوهُ، فاكتفى بالبارز من الأحداث، وجعله سلّمًا إلى قمّة الكمال.

• الكمال المنشود في الكتاب

موضوع الكتاب هو الكمال عن طريق الفضيلة، وفيما يرى قُدامى

اليونان أن الكمال هو في أن يبلغ الشيءُ تمامَهُ، يرى غريغوريوس أن الفضيلة سَيرٌ إلى الأمام، وأنّ الكمال من ثمَّ نموٌّ دائم وتطوُّر متواصل؛ وموسى يُجسّد هذه الفكرة في حياته التي كانت مَسيرة إلى أرض الميعاد، وهكذا فالكمال حركةٌ دائمةٌ نحو اللامحود واللامُتناهي، حركة «تنسَى ما وراءها وتمتدّ إلى ما أمامها» (فيل ٣ : ١٣)، حركةُ إنسان يجدُّ إلى المجهول ويتفوّق أبدًا على ذاته. ذلك هو الابتكار الرائع الذي تفرَّد به غريغوريوس. لقد تصوَّرَ فيلون وأوريجانس الحياة الروحيّة مراحل متعاقبة، ولكنهما لم يجعلا من الفضيلة حركة تجتاز هذه المراحل المتعاقبة.

ويرى أفلوطين أنّ الحياة الروحيّة تقومُ بإعادة النفس إلى طبيعتها الحقيقيّة، وبتطهيرها من كلّ ما تحمله من العناصر الغريبة، وهذا ما يذهبُ إليه غريغوريوس أيضًا، ولكنّه يرى أنّ طبيعة النفس الحقيقيّة هي في كونها صورة الله، وأنّ الحياة الروحيّة تقومُ بجلاءِ هذه الصورة، وبتحوّل النفس تحوّلاً مُتواصلاً إلى الله؛ والصورة يجب أن تُشبه صاحبها وأن تختلف عنه: فالروح المخلوقُ يُشبه الله في كونه «لا حدَّ له»، ويختلف عنه في كونه حركةً لا محدودة؛ وهكذا فجوهر النّفس هو «اشتراك» في الله دائمُ النموّ، وأبدًا غير مُنته. وقد ترفض الحريّة هذه الحركة الناميّة، فيكون من ذلك الشرّ، والتنكُّر لطبيعتها؛ وقد تسيرُ في تيّارها فتكون الفضيلةُ وتحقيقُ الإنسان لجوهره الحقيقيّ.

ولكنْ أيُّ الحركات توجّهُ الإنسانَ إلى الله وتجعله يتمثّل بالله؟ فالله غيرُ متحرّك وغيرُ قابل التحوّل، والنفس في جوهرها حركةٌ؛ فكيف يتمُّ التمثّل بين الحركة واللاحركة؟ والحلّ عند غريغوريوس في أنّ النموّ حركة، وفي أنّه ديمومة في الحركة؛ وفي هذه الدّيمومة استقرارٌ هو تمثّل بالله.

من ذلك كلّه نرى أن التّصعيد نحو الله هو حالة ثابتة، أي هو تفوُّق على الذات لا ينقطع في تجرّدات مُتعاقبة تَستمطرُ نِعَمًا جديدة لمراحل جديدة، وقد تشقُّ هذه التجرّدات على النفس، وهي تحسبُ أبدًا أنّها بلَغت الغاية، حتّى إذا انفتحت بالتجرُّد الكامل على الله تستسلم لهُ استسلامًا كاملاً، وتُصبحُ، في تخلّيها عن كلّ هوىً، فانية في الحب الصّافي.

كلُّ قياس في الكمْ تتبعُهُ بعضُ الحدود الخاصّة؛ ومَن يَنظُر إلى الذّراع أو إلى العدد عشرة يَعلم تمام العِلم أنّ الكمال فيهما يقوم بأنّهما يبتدئان عند حدٍّ ما، وينتهيان عند آخر. أمّا في موضوع الفضيلة فقد أخذنا عن الرسول نفسه أن ليس لِكمالنا سوى حدٍّ واحد هو أن لا يكونَ له حدّ؛ فهذا الرّجل الواسعُ والثاقب العقل، هذا الرّسولُ الإلهيّ، لم يتوقّف قطُّ، في سبيل سَعْيه إلى الفضيلة، عن الامتداد إلى ما هو أمامه؛ فلم يكن عِنده التوقّف عن السّعي مَوْطن أمان؛ لماذا؟ لأنّ كُلّ خير في ذات طبيعته غيرُ محدود، ولكنّه يَجد حدًّا له في ضدّه، وهكذا فالحياة في الموت، والنّورُ في الظلمة؛ وهكذا فكلّ خير يتوقّف عند الحقائق المُضادّة له. فكما أنّ نهاية الحياة هي بداية الموت، كذلك التوقّف عن السّعي في طريق الفضيلة هو بداية السّعي في طريق الرذيلة. وهكذا فلم يكن في كلامنا ضلالٌ عندما قلنا إنّ الكمال في موضوع الفضيلة لا يمكن أن يُوضع له حدّ. وقد أوضحنا أنّ ما ينحصر ضمنّ حدود لا يكون من الفضيلة **(حياة موسى)**.

• غريغوريوس والعلوم القديمة في كتابه

يقف غريغوريوس من العلوم الدنيويّةموقفين مختلفين، فهو من جهةٍ يُحرّض على اكتسابها واستخدامها في أمور الدين، وهو من جهةٍ أخرى يحذّر من أخطارها؛ وقد أكبّ هو على اكتساب ما استطاع منها، وعلى التعمّق في أساليبها، وقد ظهر أثرُها في كتابه، فنحا نحو المدرسة

السُّفسطائيّة الثانية، واتّبع نظامها في التأليف، فانجرَّ إلى معالجات جانبيّة كثيرة، وإلى قياسات جدليّة مُتسلسلة، وإلى أوصافٍ واستطرادات تستهوي السُّفسطائيّين، وإلى وجوهٍ كثيرة من المجاز والطباق والجناس وما إلى ذلك من ضروب البيان والبديع التي كانوا يرصّعون بها كتاباتهم، كما في قوله: «ظلمةٌ نيّرة»، و«الصعود إلى أسفل»، «حركة ثابتة».

وفي الحقل الفلسفيّ كان لأفلاطون التأثير الأوسع في «حياة موسى»، فقد جاراه غريغوريوس في النظر إلى وهميّة العالم الماديّ والتحرُّق إلى العودة، وفي تحليق النفوس المجنّحة إلى الأعالي، متفوّقة على ذاتها، ومتنقّلة من قمّة إلى قمّة أعلى، في سبيل الأسمى. فصورة النفس الخفيفة، التي تمتدُّ بطبيعتها إلى الخير الجذّاب، منتشرة في آثار أفلاطون وأفلوطين. ومن الآراء الأفلاطونيّة فكرةُ العودة إلى الكينونة بالتعرّي من الظاهرات الحسيّة، ومرادَفةُ الكينونة للخير، وسلبيّة الشرِّ، ومقارنة الشرّ بتمنّع العين عن رؤية النور، وتقسيمُ النَّفس إلى عقليّة وشهوانيّة وغضبيّة، وتشبيهُها بعربةٍ يجرُّها حصانان ويقودها العقل... وقد اختلف العلماءُ في موضوع المدرسة الفلسفيّة التي ينتمي إليها غريغوريوس وكان أرجحُ الآراء أنّ مذهبه هو صورةٌ أفلاطونيّة خاصّة، مستقلّة عن الأفلاطونيّة الحديثة، تجمعُ عناصرَ أفلاطونيّة إلى عناصر أرسطوطاليسيّة ورواقيّة.

٣. الأعمال النُّسكيّة والرُّهبانيّة

ء) **في التبتُّل:** هذا البحث من أعمال غريغوريوس الأولى، كتبه بُعَيْد رسامة باسيليوس الأسقفيّة (٣٧٠) وقبل أن يُدعى هو إلى الأسقفيّة؛ وهو شهادة على التجديد الذي قام به باسيليوس. يبرزُ غريغوريوس في بحثه

هذا الفكرة التي يقوم عليها مذهبُه اللاهوتيّ الصُّوفيّ، أي خلقَ الإنسان على صورة الله؛ وهو يجدُ في التأمُّل والمشاهدة ما يُطهِّر ويرفعُ إلى ما فوق الحسيّات، إذ إنّ الله فوق التصوّرات البشريّة.

بـ) في الكمال المسيحيّ: بحث موجّه إلى الراهب أولمبيوس، وهو تعليق على نصوص القدّيس بولس المسيحانيّة. فالقداسة هي عمل المسيح في النفس. وخاتمة هذا البحث هي التالية:

الكمال الحقيقيّ لا يتحقّق أبدًا، ولكنّه حركة دائمة إلى الأصلح. الكمال لا يحدّه حدّ.

جـ) اسم المسيحيّين ووظيفتهم: بحث موجّه إلى مُراسِل اسمه هرمونيوس، وخلاصته أن المسيحيّة اقتداء بالطبيعة الإلهيّة، وتجديد للصورة الأولى.

د) حياة ماكرينا: كُتبت هذه السّيرة عقبَ وفاة القدّيسة (كانون الأول ٣٧٩)، التي كانت نموذجًا للكمال المسيحيّ.

هـ) المؤسّسة المسيحيّة: هذا المؤلَّف المهمّ لم يُكتشَف كاملاً إلاَ في الأيّام الأخيرة، وهو ممّا كتبه غريغوريوس في أواخر حياته، أي بعد سنة ٣٩٠، وينطوي على هيكليّة شاملة لآراء غريغوريوس الرئيسيّة، وعلى كلمته الأخيرة في طبيعة النُّسك، ومقاطع من كتابَيْه في التبتّل وفي حياة موسى. وإذ كتبه إلى الذين «يحقّقون معًا صيغة الحياة الرسوليّة» فقد حاول أن يستخلص هدفَ الحياة الرُّهبانيّة والوسائل التي تُوصِل إليه. وهدف الحياة الرُّهبانيّة هو أن يرتقي بالإنسان الرّوحاني إلى مرحلة البلوغ، وهذا النموّ هو عمل تشترك فيه النعمةُ والحريّة. الإيمان والمعموديّة جعلا الإنسان روحانيًّا، وكانا في أصل تطهير مُتنامٍ حرّر النفس من الانطواء،

ونقلها إلى الثقة والثبات بحيث أصبحت مؤهّلة لرؤية النور الغير المُدرك. التواضع وحده يجعلها شبيهة بالمسيح.

في القسم الثاني من الكتاب تشديد على ممارسة الحياة المشتركة، حيث يصبح كلّ واحد، بكفره بذاته وبكلّ إرادة ذاتيّة، في خدمة الجميع. النُّسك هو نظام خدمة متبادَلة، في الفرح وتألُّق المحبّة؛ والطريق تصبح واضحة

عندما تتّخذ الجمعيّة دليلاً مَن أُلقِيَت إليه مهمّة قيادة الإخوان إلى ميناء الإرادة الإلهيّة (٩٧).

في القسم الثالث دفاع شديد عن حياة التأمّل، وهذا من ذاتيّات غريغوريوس الأشدِّ بروزًا؛ فالصلاة قمّة سُلّم الفضائل.

من يُكبّ على الصلاة، بقيادة الروح وعونه، يضطرم بحبّ الربّ وبالرغبة في مناجاته، لا يجد ما يروي ظمأه إلى الصلاة، بل تزداد أبدًا رغبته في تطلّب الصلاح الإلهيّ (٧٨).

٤. الخُطب والمواعظ والرسائل

الخُطَب والمواعظ هي الأعمال الأقلّ قيمة في تراث غريغوريوس النيصيّ، وهي دون خُطب ومواعظ الكبّادوكيّين الآخرين، فغريغوريوس لا يملك نظرة باسيليوس الواقعيّة، ولا عفويّة النَّزينزيّ وخياله؛ وأساليب السفسطائيّة الثانية التي يعتمدها لا تنقاد له كما انقادت لهما، بل تبدو عنده خالية من الروح ومن التأثير. وقد عالج في خطبه ومواعظه قضايا لاهوتيّة وأخلاقيّة، من مثل لاهوت الابن والروح القدس، وتجاوزات مُرجئي المعموديّة، ومعاندي كلمة الله، وذوي الأطماع... ولغريغوريوس خُطَب ومواعظ مناسبات كتلك التي كان يلقيها بداعي الأعياد الكنسيّة

(الميلاد، والفصح، والظهور، وأعياد القدّيسين...) وهو اوّل من وعظ بداعي عيد الصعود، فكانت عظته فيه الشهادة الأولى على انفصال ذلك العيد عن عيد العنصرة (أيّار ٣٨٨).

أمّا رسائل غريغوريوس فلم يصل إلينا منها إلاّ ثلاثون أشهرها الثانية والثالثة اللتان عرض فيهما لموضوع الحجّ إلى القدس، وشجب فيهما الغلوّ في تعظيم ذلك الحجّ.

ثالثًا: فكرة غريغوريوس الفلسفيّة واللاهوتيّة

لقد اصطبغت فلسفة غريغوريوس بالصبغة الأفلاطونيّة (الأفلاطونيّة المتوسّطة والأفلاطونيّة الحديثة الناشئة) التي تظهر بوضوح في حواره مع أخته ماكرينا في موضوع الروح والقيامة، وعلى خطّة أفلاطون في حوار فيدون. والذي تمتاز به أفلاطونيّة غريغوريوس هو أنّها مطبّقة تطبيقًا توفيقيًّا على الفكرة المسيحيّة وهذا ما يميّز غريغوريوس النيصيّ عن زميلَيْهِ الكبّادوكيّين الكبيرين وما جعله، في نظر الباحثين، المفكّر العميق الفلسفة.

وهو في لاهوتيّاته يستند كزميلَيْهِ على التقليد الاسكندري الذي عُرف به فيلون وأوريجانس؛ وكثيرًا ما يذكر أوريجانس، وقد أخذ عنه فكرة الاصلاح، في آخر الأزمان.

وأمّا اللاهوت النُّسكي والصّوفي فقائم عند غريغوريوس على كلمة بولس «أنسى ما ورائي وامتدّ إلى ما أمامي» (فيل ٣: ١٣)؛ فالكمال عنده التصعيد المتواصل نحو الله، كما فصّلنا ذلك في دراستنا لِـ «حياة موسى».

غريغوريوس النّيصي هو، بعد أوريجانس، صاحب العرض الهيكليّ

المنظّم للعقيدة المسيحيّة. إنّه ينطلق من الكتاب المقدّس «معيارًا للحقيقة» (ضد أفنوميوس ١ :١٠٧) و«دليلاً للعقل» (١: ١١٤، ١٢٦)، ويجعل محلاًّ واسعًا في لاهوته للفلسفة والعقل في غير إغفال لما يقدّمه التقليد من مُعطيات.

لا يحقُّ لنا أن نُثبت ما نريد. إنّنا نجعلُ الكتاب المقدّس معيارًا ومقياسًا لجميع عقائدنا؛ ولا نوافق إلاّ على ما يتّفقُ ومضمون هذا الكتاب (النفس والقيامة).

إذا عجز تفكيرنا عن احتواء هذه المسألة، يجب علينا أن نتشبّث بالتقليد الذي ورثناه عن سلسلة الآباء (لا يوجد ثلاثة آلهة).

١. معرفة الله

على أثر فيلون وأفلوطين يرى غريغوريوس أنّ معرفة الله ليست معرفة طبيعيّة فقط، تنطلق من الأشياء الحسيّة إلى الأشياء فوق – الحسيّة؛ ولكنّه يجعل قمّة معرفة الله في تعالي النفس البشريّة إلى مشاهدة تأمّليّة لله مباشرة، إلى تمتُّع مُسبق بسعادة السماء، إلى «نشوة إلهيّة وعقليّة» (التطويبات ٦). وإن ما عنده من لمحات أساسيّة «للاهوت سلبيّ» ومذهبه في موضوع الاسم الإلهيّ، وتصوّره للانخطاف كلّ ذلك جعل منه سابقًا لذيونيسوس الأريوباغي، ومُلهمًا لمكسيمُسَ المعترف.

٢. عقيدة الثالوث

الثالوث ثلاثة أقانيم في جوهر واحد، وتمييز أحدهم عن الآخر هو تمييز علاقة لا تمييز جوهر؛ وكلّ عمل إلهيّ إلى الخارج هو عمل الأقانيم الثلاثة، أمّا العلاقات المتبادلة في الداخل فهي كما يلي: «هنالك المبدأ

وما يصدر عن هذا المبدأ؛ وفي ما يصدر عن المبدأ ما يصدر مباشرة، وما يصدر بوساطة الصادر مباشرةً عن المبدأ». فغريغوريوس كسائر الآباء اليونانيّين يُعلن أن الروح القدس ينبثق من الآب بالابن، ومع ذلك فللروح القدس مع الآب علاقته الطبيعيّة. وفي المقال «ضدّ المقدونيّين» يشبّه غريغوريوس الثالوث بثلاثة مشاعل، يُشعل الأوّلُ منها الثاني، ويشعل الثالث بوساطة الثاني؛ وفي عظته التفسيريّة عن «الصلاة الربيّة» يوضح «أن الروح القدس من الآب، وأنه أيضًا من الابن؛ وأنّ هذا الروح الذي هو الله هوأيضًا روح المسيح». وهكذا كان كلامه على العلاقة التي بين الروح والابن أشدّ وضوحًا من كلام الكبّادوكيّين الآخرَين.

٣. المسيحانيّة

الإنسان في حركة دائمة، تشدّه رغبةٌ لا حدود لها هدفها الله، الجمال اللامتناهي الذي يزداد بعدًا كلّما اقتربتِ النفس منه. إنّه غيرُ المدرك، وهو مع ذلك محطّ الرغبة البشريّة التي لن تجد السعادة إلا فيه. والإنسان، بعد عثرة أَبويهِ الأوّلين، ثقُلت خُطاه، «وتهاوى رملُ الكثيب تحت قدَميهِ كلّما حاول التصعيد فيه»، فكان لا بُدّ له من عونٍ سماويّ ينتشله من عثرته ويعيد إليه النعمة المبرّرة، وهكذا كان التجسّد الذي جدّد خليقته المُحْرَجة، إذْ أرسل الله ابنه، وسكب الرحمة في الطبيعة المتعثّرة، وفتح قلبها لمحبّة الله.

وغريغوريوس يعلّم بوضوح أن في المسيح طبيعتين كاملتين غيرَ ممتزجتين، طبيعة إلهيّة كاملة، وطبيعة إنسانيّة كاملة في شخص واحد يجمع ميزات كلّ من الطبيعتين؛ وأن اللوغس تكوّن في حشا العذراء «كما في إناء إلهيّ لم تصنعه يد بشريّة»؛ والعذراء من ثمّ «ثيوتوكُس» لا «أنثروبوتوكس»

كما ادّعى المتحذلقون؛ وهكذا وجدت المرأةُ في المرأة مَن يدافع عنها وينقذها.

٤. الأسخطولوجيا (الأزمنة الأخيرة)

وإن رفض غريغوريوس رأي أوريجانس في أنّ وجود النفوس سابق لوجود أجسادها، فإنّه يوافقه على أنّ عذاب جهنّم وقتيّ، ويرى معه في الإصلاح العامّ، في آخر الأزمان (αποκατάστασις) الخاتمة الرائعة لتاريخ الخلاص، إذ يخلُصُ الجميع حتّى الشياطين (وهذا ليس تعليم الكنيسة).

٥. الافخارستيا

«نحن على ثقة الآن أنّ الخبز، حالما يتقدّس بكلمة الله، يتحوّل إلى جسد». «تلك هي الموهبة (عدم الفساد) التي يمنحها بتحويل طبيعة الأشكال إلى هذا» (الجسد غير المائت). (التعليم الكبير ٣٧: ٣، ١٢).

خاتمة: غريغوريوس فيلسوف وشاعر ومتصوّف

غريغوريوس النّيصيّ مفكّر صوفيّ يمكن النّظر إليه من نواحيَ مختلفة لأنّه في آنٍ واحد فيلسوف، ولاهوتيّ، وشاعر، ومتصوّف؛ ولكن ما يميّزه عن غيره بنوع خاص هو عبقريّته البنّاءة. وروحانيّته أبدًا ذات توجّه عقائدي وارتكاز مسيحاني وسرّي. أما شعره فدون شعر النّزينزيّ، وخالٍ من الروح والعفويّة، وأمّا أسلوبه الكتابي فيعقّده بعض التعقيد غوصهُ على المعاني البعيدة الأغوار والواسعة الآفاق.

غريغوريوس أعمق فيلسوف يونانيّ في العهد المسيحيّ. وعملهُ الصّوفي صدى لخبرة شخصيّة، وهو في الحقيقة مؤسّس اللاهوت الصُّوفي. لا

شك أنّه تأثّر بأوريجانس ولكنّه عرف أن يكون ذاتيًّا، وأن يصبغ صوفيّته بروحانيّة سامية قائمة على التأمّل بأسرار الله وحكمته اللامحدودة.

لم يكن غريغوريوس إداريًّا كأخيه باسيليوس، ولم يجاره في العمل، ولكنّه وضع له في موضوع العفّة والتبتّل خطّة الحياة الرهبانيّة، وكان بذلك مرشد الرهبان الروحيّ؛ وبعد موت باسيليوس حرص على إتمام عمل أخيه سواء كان ذلك من الناحية اللاهوتيّة أم من الناحية الروحيّة، وقدّم للحياة الرُّهبانيّة نظامها الأمثل.

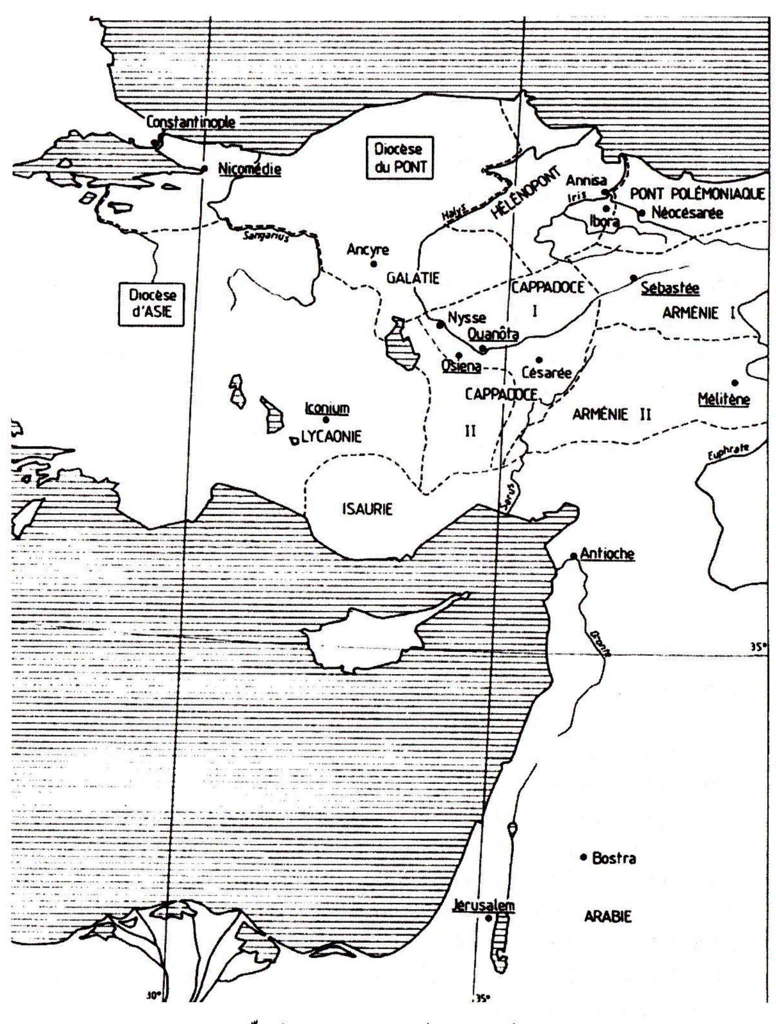
١. طبعات وترجمات

- Opera omnia, PG 44-46.
- Gregorii Nysseni opera, Berlin-Leyde, 1921 (14 vol. à ce jour).
- De Virginitate, dans Aubineau (M.) = SC 119, 1966 (texte, trad. française et commentaire).
- De mortuis, dans Lozza (G.) = Cor Pat 13, 1991 (texte, traduction italienne et commentaire).
- Epistulai, dans Maraval (P.) = SC 363, 1990, (texte trad. française et commentaire).
- Vita Macrinae, dans Maraval (P.) = SC 178, 1971, (texte, trad. française et commentaire).
- Vita Moysis, dans Daniélou (I.) = SC 1 bis, 1955 (texte, trad. française et commentaire).

– حياة موسى، تعريب الأب حنّا الفاخوري، منشورات المكتبة البولسيّة، حريصا ١٩٩٦.

٢. دراسات

- Balthasar (H.U.), *Présence et pensée. Essai sur la philosophie religieuse de Grégoire de Nysse*, Paris 1988.
- Bouyer (L.), *La Spiritualité du N.T. et des Pères*, Paris 1960.
- Canévet (M.), *Grégoire de Nysse et l'herméneutique biblique*. Etude des rapports entre le langage et la connaissance de Dieu, Paris, 1983.
- Castellucio (G.), *l'antropologia di Gregorio Nisseno*, Bari, 1992.
- Daniélou (J.), *l'être et le temps chez Grégoire de Nysse*, Leide, 1990.
- Daniélou (J.), *Platonisme et théologie mystique*, Doctrine spi-rituelle de S. Grégoire de Nysse, Paris 1954.
- Daniélou (J.), *S. Grégoire de Nysse*, dans sa théologie de la vie monastique, Paris, 1961.
- Hari (M.) *Il Platonismo e l'antropologia filosofica di Gregorio di Nissa*, Milano, 1993.
- Volker (W.), *Gregor von Nyssa*, als Mystiker, Wiesbaden 1955.



محطات نشاط غريغوريوس النيصّي

غريغوريوس النيصّي ورسائله

١. ليس لرسائل غريغوريوس النيصيّ من الأهميّة ما لرسائل باسيليوس والنّزينزيّ، وهي ثماني وعشرون رسالة أُضيف إليها رسالتان وُجّهتا إليه، إحداهما للسُّفسطائيّ ستاجيريوس والأُخرى لشقيقه بطرس. وهذه الرسائل تختلف اختلافًا شديدًا في الطول والموضوع، فالى جانب الرسائل القصيرة التي تسير على أسلوب الترسُّل العاديّ نجد أربع رسائل طويلة (١، ٣، ١٧، ١٩) هي بواقع أربعة أبحاث دفاعيّة، أو تفسيريّة، أو لاهوتيّة، أو روحيّة. يبدو أنّ غريغوريوس جمعها قبل نشرها وأعاد النظر فيها وصوغها صياغةً بلاغيّة نلمس فيها التعمُّل والصّناعة البيانيّة والبلاغيّة.

٢. كتب غريغوريوس رسائله في عهد أُسقفيَّتِهِ، وقد تكون جميعها عاقبةً لوفاة باسيليوس، أي لما بعد ٣٨٠، وقد يكون غريغوريوس قد اختارها اختيارًا فكانت ثمرة نحو عشر سنين من الاتّصالات المختلفة الأهداف. في الرسالة ٦ إشارة الى عودته من المنفى بعد غياب طويل أي في خريف ٣٧٧ وقد استقبله شعبه استقبال الظافر وواكبوه الى كرسيّه بالتهليل ودموع الفرح. واننا لا نجد في الرسائل إشارة الى مجمع أنطاكية الذي عُقد سنة ٣٧٨، ولكنّنا نرى في الرسالة ١٩ أنّ غريغوريوس عقد صداقات في انطاكية مع جماعة الاكليرُس، وفي الرسالة ١٣ أنّه تعرّف برجل البلاغة الشهير ليبانيوس. ويبدو ان هذا المجمع الأنطاكي عهدَ الى غريغوريوس في معالجة قضيّة بعض الجماعات مع الأرثوذكسيّين الشرقيّين (الرسالة ٥)، كما أوفده المجمع المنعقد سنة ٣٨١ الى البلاد العربيّة؛ وما

إن اختُتم المجمع حتى توجّه غريغوريوس الى البنطس وقد بلغه خبر مرض أخته ماكرينا فتوجَّه اليها لحضور ساعاتها الأخيرة، وبعد ذلك انتقل الى نيصّص يُعالج بِدَع الغلاطيّين الذين أشاعوا الفوضى العقائديّة في المنطقة.

بعدما استقامت الحال لغريغوريوس في نيصّص دُعي الى إيبورا لاختيار أسقف لها بعد وفاة راعيها أراكسيوس، ثم الى سيبسطية للغاية نفسها، وقد عبّر في الرسائل ١٨ و١٩ و٢٢ وغيرها عن شكواه الشديدة ممّا لاقاه في هذه المدينة، واتّهم أهلها بالخبث والمخادعة. وفي الرسالة ٢٢ يشير الى مجمع أساقفة من شأنه أن يُنقذه من هذه الشدّة، وما إن عاد إلى نيصّص حتى أكبّ على وضع اللمسات الأخيرة على كتابَيْهِ الأوّل والثاني من تسفيه أفنوميوس (الرسالة ٢٩) بين صخب الصّاخبين النّاقمين على أفنوميوس وأتباعه، وتشجيع المشجّعين على الردّ في غير إبطاء.

أغفلت الرسائل موقف غريغوريوس في مجمع ٣٨١ حيث كان له الدور الكبير وكلمة الفصل، وكان هو وهلاّديوس أسقف قيصريّة وصديقه أُترايوس أسقف مليتينُس (صاحبا الرسالتين ١٠ و١٨) على قائمة الأساقفة الذين ينبغي أن تقوم معهم الشراكة الأرثوذكسيّة؛ وقد وردت إشارة الى ذلك في الرسالة الأولى، كما انطلقت فيها شرارة سخط غريغوريوس على هلاّديوس الذي لم يُحسن استقباله.

ليس في الرسائل ما يوضح نوع العمل الذي قام به غريغوريوس في البلاد العربيّة عندما أُوفد إليها؛ أما سفره الى أورشليم فقد ورد ذكره في الرسالة الثانية كما ورد انّ ذلك السفر كان عن طلب من رؤساء الكنائس المقدّسة في أورشليم. ويبدو أن غريغوريوس لم يحصد من تلك الرحلة إلاّ ما أُتيح له من زيارة الأماكن المقدّسة. أمّا خلافه مع هلاّديوس أسقف

قيصريّة فناشئ عن أمور عدّة أهمّها تدخُّل غريغوريوس أسقف المدينة الصغيرة في شؤون المنطقة وعاصمتها قيصريّة، فقد أغضب ذلك هلاّذيوس وكان ما كان. وفي ما يتعلّق باختيار أسقف لنيقوميدية فقد فصَّل غريغوريوس في الرسالة ١٧ نظريّته في الأُسقفيّة وما يجب أن يتحلّى به الأُسقف من صفات، وقد تدخّل في الأمر لكونه مُكلَّفًا بالرقابة الأرثوذكسيّة في المنطقة، ولكون المرشّحين لهذا المنصب في المدينة هم عدّة؛ قد يكون غريغوريوس مؤيّدًا لهذا ورافضًا لذاك من غير أن يصرّح بذلك في رسالته، وميله ظاهر في النعوت التي يريدها للأسقف، وقد آل الأمر الى اختيار جيرونتيوس مرشّح هلاّذيوس، ودلّ ذلك على عدم تحلّي غريغوريوس بالدّهاء الاكليريكيّ وإن تحلّى بأعظم الصفات الرُّوحيّة.

بين الرسائل الأخرى الواضحة الأهداف نتوقّف عند الرسالة ٢٥ التي وصف فيها غريغوريوس هندسة بناء المرتيريوم في نيصّص، وصفًا دقيقًا كما اهتمّ للبناء والبنّائين بأسلوب المهندس الذي لا تفوته شاردة ولا واردة.

الذي يقرأ هذه الرسائل يلمس عبقريّة الكاتب البلاغية واللاهوتيّة، ويلمس الأفق الثّقافي الواسع الذي يجول فيه جامعًا ما بين الحضارة الفكريّة الهلينيّة والحضارة الفلسفيّة واللاهوتيّة المسيحيّة.

الرّسالة الأولى

إلى الأسقف فلافيانس

إنّ أمورنا، يا رجُلَ الله، لا تسيرُ سيرًا حسنًا: فالضّغينة التي تشتدُّ عند من بعثوا علينا هذا الحقد الجائر الذي لا يُفسَّر، لم تعد شُبهةً قائمةً على ظنٍّ أو تخمين، ولكنّها تعملُ بصورةٍ سافِرة، وكأنّها عملٌ صالح. وأنت الذي لا تزال بمعزل عن هذا الشرّ لا تهتمّ لإخماد هذه النار التي تلتهم بلهيبها كلّ ما جاورها، كما لو كنتَ تجهلُ أن من يحرصون على صيانة صوالحهم يقاومون، بكل ما لديهم من طاقة، الحرائق التي تنال جيرانهم، حتّى لا يفقدوا العون إذا نالهم الأمرُ نفسه. ماذا أعني بقولي هذا؟ لقد غادرتِ التقوى هذا العالم، لقد ابتعدت الحقيقة. أمّا السلام فكان لنا منه قبلاً الاسم يتردّد على شفاهنا؛ والآن غاب السلام وغاب اسمُه أيضًا. ولكي تكون على علمٍ أوضح بسبب شكواي سأعرض لك المأساة بوجيز الكلام.

هناك أناسٌ نقلوا إلينا أنَّ هِلاّذيوس[1] الجزيل الاحترام يُسيء النَّظر فينا، ويروي للجميع أني كنتُ له سببَ أسواءٍ كثيرة وشديدة. ما كنتُ

---

(١) الخصومة التي نشأت بين هلاذيوس رئيس أساقفة قيصريّة وغريغوريوس النيصّي والنزاعات التي نشأت عنها كان ساويرُس الأنطاكيّ على علم بها، وقد قدّمها لتبرير الخلاف الذي جرى بينه وبين بعض الأساقفة.

أُصدّق ما يُنقَل إليّ وأنا أتقصّى ما أنا عليه وحقيقة ما كان يجري. واذ كان الجميع، وبالصوت الواحد، ينقلون إليّ الأمر نفسه، واذ كانت الأحداث تتّفق وهذه الشّائعات، رأيتُ من الملائم أن لا أدع هذه الحدّة الغوغائيّة بلا علاج. ولهذا توجّهتُ بهذه الرّسالة الى تقواك، ثم إنّي حملتُ الكثيرين من ذوي الإلمام بهذه القضيّة على أن يُولوها اهتمامهم، وإليك آخِرَ الأحداث. كنتُ قد احتفلتُ بعيد الطوباويّ بطرس[٢] عندما كان سكّان سيبسطية يقيمون ذكراه للمرّة الأولى في مدينتهم، وقد اشتركتُ معهم في الأعياد التي درجوا على الاحتفال بها في تلك الفترة تكريمًا للشهداء، وكنتُ في طريق العودة الى كنيستي؛ وقد لفتَ نظري أحدُهم الى أنّه موجودٌ في منطقة جبليّة مُجاورة، للاحتفال بأعياد شهداء[٣]، فقرّرتُ أوّلاً أن أواصل مَسِيرتي رائيًا من الأفضل أن تجري المقابلة في العاصمة؛ ولكن عندما سارع إليّ أحدُ الأصدقاء وأخبرني أنه مريض، تركتُ عربتي في مكانها، في المكان الذي جاءَني فيه الخبر، وامتطيتُ جوادًا لاجتياز المسافة التي كانت تفصلُه عنّي، مسافة وعرة، صعبة المسالك، شديدة الانحدار. خمسة عشر ميلاً، على حدّ ما قال أبناء المنطقة، كانت تفصلنا عنه. بعدما اجتزناها بكبير مشقّة، تارةً راجلاً، وتارةً على جواد، وصلتُ صباحًا، في الساعة الأولى من النهار — وكنتُ قد قطعتُ قسمًا من المسافة ليلاً — الى أنذيمونا — وهو اسم المكان، الذي كان يرأس فيه اجتماعًا مع أسقفينِ آخرين[٤]. لمحنا من بعيد، من مكان

---

(٢) كان بطرس هذا أسقفًا على سيبسطية في بدء القرن الرابع. من اللافت للنظر أن غريغوريوس يتكلّم تارة بضمير الجمع «نحن»، وتارة بضمير المفرد «أنا».

(٣) أي الشهداء الأربعين الذين استشهدوا في سيبسطية.

(٤) كثيرًا ما كان عيد الشهداء يجمع أساقفة الإقليم وأساقفة الجوار؛ وكانت الحفلات تستغرق الليل كله وتنتهي عند الصباح بخدمة الإفخارستيّا؛ وقد وصل غريغوريوس صباحًا عند نهاية الخدمة وخروج الأُسقف الى منزله. وقد عُقِد المجلس خارج مزار الشهداء لضيقه ووفرة عدد المؤمنين.

مرتفع يُشرف على القرية، المجلس مجتمعًا في الهواء الطَّلق. اجتزنا المسافة الباقية على مهل، متقدّمين مشيًا على الأقدام أنا ورفاقي، وفي أيدينا أرسانُ جيادنا؛ وقد جرى في الوقت نفسه أمران: هو تركَ المجلسَ وصار إلى منزله فيما كنّا نحن نقترب من مزار الشهداء. وفي غير إبطاء أوفدنا إليه من يخبره بمجيئنا. وحدث أن هرع شمّاسه لاستقبالنا فرجوناه أن يخبره حالاً بحيثُ يُتاح لنا أن نمكث معه وقتًا أطول، وأن نتمكّن من علاج كل ما بيننا بالعلاج الملائم. مكثتُ بعد ذلك جالسًا في الخارج منتظرًا من يدعوني، وذلك كلّه في عيون جميع من جاءوا الى الاجتماع – مشهد غير لائق! مضى من الوقت وقتٌ طويل؛ وفي أثناء ذلك نُعاس، وفُتور – وقد ضاعف تعبُ السفر الفتور – وحرٌّ شديد؛ وكان من يروننا يُشيرون بعضُهم الى بعض بالأصابع... وكان كل ذلك شديدًا عليّ بحيث تحقّق فيَّ كلامُ النبيّ: «قد غُشيَ على روحي في داخلي[٥]» ولم أُسْتدعَ للدخول إلاّ عند الظهيرة، وفي نفسي ندمٌ مرير ومرٌّ لأني، فضلاً عن المقابلة، سبّبْتُ لذاتي هذه الإهانة. وأشدّ عليّ من الامتهان الذي لحقني من خصومي، الغمُّ الذي كان يعتلج في نفسي وقد نازعت ذاتها وتحرّقت ندمًا على ما فعلت.

بعد لأي انفتح لنا باب «الهيكل» ودخلنا «قدسَ الأقداس»، ولم يُسمح بالدخول إلاّ للقِلّة، فدخل معي شمّاسي يسند بذراعه جسمي المنهوك. حيّيتُهُ ولبثتُ واقفًا بعض الوقت. ريثما يدعوني للجلوس، واذ لم يفعل تراجعتُ خَجلاً وانزويتُ على مقعدٍ خشبيّ قريب، منتظرًا كلمةَ ترحيب، أو إشارةً من نظرٍ مُجيب. ولكن جرى كل شيء على غير ما كنتُ آملُ. فبعد هذه اللحظة، صمتٌ عميق كالليل، وحزنٌ مأسويّ، وذهولٌ،

(٥) مز ١٤٢: ٤.

ورهبة، وسكونٌ تامّ، وكأني بالوقت يجري في صمت طويل، وكأنه الليل الأسود الفاحم. أمّا أنا فقد غلَت فيَّ روحي، إذ إنه لم يتنازل بكلمةٍ عاديّة يوجّهها إليّ ويُنقذ بها الموقف وما تقتضيه اللياقة والآداب العامّة، كأن يقول لي: هل كان سفرك موفَّقًا؟ أو: من أين أتيت؟ أو: لأيّ سبب؟ هل بدافع شخصيّ؟ أو: فيمَ الإسراع؟ هذا الصّمت كنت أراهُ صورةً لِسُكنى الجحيم. وإنّي لأُنكِرُ في الحقيقة هذا التشبيه لأنّ الجحيم موطن المساواة الكاملة، ولا شيء يعكّر سُكناها ممّا ينسج على الأرض مأساة الحياة: «فالمجد، على حّد قول النبيّ، لا ينزل مع البشر»، ولكنّ نفس كل واحد، وقد أبت ما يهمُّ اليوم أكثرَ الناس، أعني الوقاحة، والغطرسة، والصَّلَف، تأتي لتُقيم مع السِّفلة، فقيرةً وبسيطةً، بحيث يخلو جوّهم من بؤس الحياة الدُّنيا. إلاَّ أن الحالة بالنسبة إليَّ كانت أشبه بجحيم، بسجنٍ مُظلم، أو بأيّ مكان تعذيب آخر، عندما كنت أستحضر في خاطري ما أورَثَناهُ آباؤنا من خيرات، وما سنتركه لمن بعدنا من روايات. وماذا أقول عن تعاطف آبائنا؟ ليس من العجيب لأناسٍ في المرتبة الواحدة بالطبيعة ألاَّ يتعالى الواحدُ منهم على الآخر، بل أن يتنافسوا في التواضع. والذي كان يشغل بالي وفكري هو: أنَّ «سيّد الخليقة»، «الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب»، من هو «في البدء»، من هو «على صورة الله»، من هو «ضابط كلّ شيء بكلمة قدرته» لم يكتفِ بالتّنازل وسكنى الجسد في طبيعة إنسانيّة، ولكنّه استقبل يهوذا الذي أسلمه بقبلةٍ من فيه، ودخل بيت سمعان الأبرص وعتبَ عليه لأنه لم يُلبّ داعي المحبّة ويقبّلْهُ. أنا لم ألقَ حتى ما يلقاه الأبرص من معاملة. وذلك مِمَّن ولِمَن؟ الفرق في ما بيننا لم أجد له أثرًا: من أين نزل، وأين أنا قابع – إذا نُظِرَ ولو قليلاً إلى أمور هذه الدُّنيا؟ فإن نُظِرَ الى الوضع من ناحية النّسب يمكن

القول، من غير تجريح، بأنه بالمستوى نفسه، إذ ان المكانة الاجتماعيّة والشرفيّة هي هي عند كِلَيْنا. ولكن اذا نظرنا الى المكانة والرِّفعة الحقيقيّتين، الى مكانة النفس ورفعتها، فكلانا عبدا الخطيئة، ونحن بحاجة الى من يرفع الخطايا. إنسانٌ آخر، بدمه الخاصّ حرّرنا من الموتِ ومن الخطايا، افتدانا ولم يُبدِ أيّ مظهر من مظاهر الغطرسة تُجاهَ من خُلِّصوا، ذاك الذي يُعيد الموتى الى الحياة، الذي يشفي كلّ علّةٍ في النّفس والجسد.

هكذا إذن، كادت هذه الكبرياء الثّائرة في وجهنا، وهذه العنجهيّة المنتفخة تضيق بهما رحاب السَّماء، وكنتُ لا أرى أيَّ مادّة ولا أيّ سببٍ للمرض، عند أولئك الذين يُبرّرون مثلَ هذا الشُّذوذ عند من عُلُّوا لسببٍ ما كشرف الأصل، والتربية، والترقية الى رتبةٍ ما، فانتفخوا عُجبًا في ذواتهم وضَعتِهم؛ وكنتُ لا أستطيع الاقتناع بالرُّضوخ، لأنّ قلبي في داخلي كان مضطربًا يهيجهُ الشذوذ في ما يجري، ويرفض بشدّة كل مجال للصّبر. وقد ألحّت عليَّ إذ ذاك صورة الرسول الإلهيّ وأُعجِبتُ بقوله الذي يصف فيه بوضوح الحربَ القائمة فينا، ويقول: «إنّي أرى في أعضائي ناموسًا آخرَ يُحارِبُ ناموسَ عقلي ويأسِرني لناموس الخطيئة[٦]»؛ وقد لمستُ في نفسي صراع موقِفَين، موقف يثور للإهانة التي لحقتني من الغطرسة، وموقف يحاول تهدئة الاضطراب. وعندما تغلّب عندي، بعون الله، الميلُ الأصلح توجَّهتُ أنا إليه وقُلت: هل يا تُرى يعوقُ حضوري هنا بعضَ ما يُقدّم لك من عناية صحّيّة، وهل يجب عليّ أن أخرج؟ وإذ قال انه ليس بحاجة الى عناية، توجَّهتُ اليه ببعض

---

(٦) رو ٧: ٢٣.

الأقوال اللطيفة، بقدر ما كان ذلك في وسعي. وبما أنّه أوضح ببعض الكلمات أنّه ناقم علينا لإهانات كثيرة صادرة عنّا أجبته قائلاً: للكذب في عالم البشر قدرة كبيرة على الخداع، ولكنّ القضاء الإلهي لا يقبل حجاج الخداع؛ وضميري من هذه الناحية في طمأنينة بالنسبة الى ما بيني وبينك، وأرجو أن أنالَ منك مغفرةَ آثامي الأُخرى، ولئن كانت قد بدرت مني أيُّ إساءَة إليك فلْتَبْقَ بلا مغفرة الى الأبد». غاظهُ كلامي فأبى أن أُضيف اليه البراهين على صِحَّتِه.

كانت السّاعة السادسة قد مرّت، والحمّام قد جُهّز[٧]، والطّعام قد هُيِّئ؛ وكان اليوم سبتًا وعيدًا للشُّهداء. كيف يقتدي تلميذ الإنجيل بسيّد الإنجيل؟ ذاك الذي كان يأكل ويشرب مع العشّارين والخطأة، ويبرّر سلوكه أمام منتقديه بقوله انه يعمل ما يعمل محبّةً للبشر. هذا كان يعدُّ جلوسنا معه الى المائدة انتهاكًا للقدسيّات ورجسًا. وهكذا بعد التّعب الشديد الذي عانيناه من جرّاء السَّفر، وبعد الحَرّ الشديد الذي جفَّفَنا ونحن جالسون في العراء على أبوابه، وبعد هذا الحزن المُظلم الذي تحمّلناه في حضرته، صرَفَنا فعُدنا من حيثُ أتَيْنا في الطريق التي سلكناها قبلاً، وبجسمٍ أضعفتهُ المسيرةُ وأنهكتهُ. مضينا اذن على مشقّة، ونحو المساء التحقنا برفاقنا، وما إن التأم شَمْلنا حتى هبّت علينا عاصفةٌ تجمّعت فيها الغيوم بغتةً في الفضاء وصبّت علينا من المطر الغزير ما اخترق عظامنا، وبسبب الحرّ الشديد لم يكن علينا ما يقينا المطر. وهكذا كُنّا كأُناسٍ نجوا من العاصفة أو من الغرق، واستطعنا بعون الله، ان نجتمع برفاقنا في فرح عظيم، وبعد إذ قضينا جميعُنا الليلة في راحة وطمأنينة، وصلنا أحياءَ

---

(٧) كان الحمّام قبل الطعام أمرًا شائعًا في العالم اليونانيّ الرومانيّ، يجري في الساعة الخامسة، ويليه الطَّعام في السّاعة السادسة.

سالمين الى ديارنا، وكان الجنى الوحيد لهذا اللقاء إهانةً أيقظت فينا ذكرى كل ما جرى سابقًا.

لا بُدَّ لنا وللآتي من الأيّام أن نتّخذ قرارًا يكون لصالحنا، أو بالحري لصالحه هو؛ فإنّ غياب كل ما يضع حدًّا لتصرّفه في الماضي حمله على هذا الشّطط المتغطرس. فلكي يستطيع أن يُحسّن سيرته، قد يكون من المفيد أن نعمل شيئًا لكي يعرف أنه مجرَّد إنسان، ولا يحقّ له أن يُهين ويحقّر مَن هم على إيمانه ومن رتبتِه. هَبْ - أتكلّم افتراضًا - أنني كنتُ له سبب بعض الإزعاج، فأيّ قضاءٍ حكم علينا عملاً وشبهةً؟ أيّ برهان على ظلمي؟ بأي قوانين حُكم علينا؟ أي قرار شرعي لأحد الأساقفة صدّق على الحكم الصادر علينا؟ لو حدث شيءٌ من ذلك وفقَ القوانين لكان مقامُنا في خطر؛ ولكن أي القوانين قضت بتوجيه الإهانة الى أشخاص في الرُّتبة الواحدة، وتحقيرهم؟

«أُحكموا حكمَ الحقّ[٨]» أنتم الذين تنظرون الى الله. فيمَ ترون توجيه الإهانة إلينا معذورًا؟ إن كانت القيمة تقوم على الكهنوت، فقد مَنَحَنا المجمع بالتساوي الامتيازَ، او بالحريّ مهمّة معالجة الأمور العامّة، بحيثُ لا يفضل أحدُنا الآخر في ذلك[٩]. ولكن اذا نُظِر إلينا في ذاتنا بمعزلٍ عن الكهنوت، فهل يفضُلُ أحدُنا الآخر في شيء؟ الأصل؟ التّنشئة؟ الحريّة أمام العُظماء والسُّلطات؟ العِلم؟ اننا لسنا دونه في ذلك كلّه. وأمّا الثروة؟ عسايَ أن لا أكون مضطرًّا الى الدخول في تفاصيل هذا الموضوع. يكفي أن نقول ما كانت في البدء وكم اصبحت في الوقت الحاضر،

---

(٨) زك ٧: ٩.

(٩) إشارة إلى مجمع القسطنطنسنّة الذي عيّن أحد عشرًا عضوًا من أعضائه كضمانة للأرثوذكسيّة، منهم غريغوريوس وهلاذيوس لأبرشيّة البنطس.

وأن نترك لغيرنا أن يتحرّى أسباب تضخّم هذه الثروة التي لا تزال تزداد وتغتذي كلَّ يوم بمشاريع رائعة. فما الذي يبرّر هذه الإهانة التي وجّهها إلينا، اذا لم يكن هنالك تفوُّق في شرف الأصل، وأَلَق الرُّتبة، وبلاغة الخطابة، وبسط اليد بالمعروف؟ حتى لو وجد ذلك فإنّ إهانة أُناس أحرار أمرٌ لا يُغْـتَفر؛ واذ لم يكن شيء من ذلك أرى انه من الضروري ألاّ يُترك مرضُ الصَّلَف هذا بلا علاج؛ والدّواء هو في حطّ عنفوان الغَطرسة، وفقء الادّعاء الباطل، عندما يُفشّ انتفاخ الكبرياء. عسى أن يوفِّق الله الى ذلك.

الرّسالة الثانية

إلى كِينِسْتور[1] في موضوع الحجّ الى أُورشليم

بما أنّك استشرتني برسالتك، أيُّها العزيز، رأيتُ من الموافق أن أجيب، بحسب الترتيب، عن جميع الأمور. أقول أنا إنه يجب على الذين انقطعوا انقطاعًا تامًّا لطريقة الحياة السّامية أن تكون أنظارهم أبدًا ثابتةً في كلام الإنجيل؛ وكما يفعل من يريدون تقويمَ شيءٍ وإرساله على القاعدة، معالجين ما في أيديهم من اعوجاج ليستقيم استقامة القاعدة، كذلك يجب، في اعتقادي، على الذين يتقيّدون، نوعًا ما، بقيودِ قانونٍ مستقيم وثابت – أعني طريقة الحياة الإنجيليّة – ان يسيروا باستقامة نحو الله، مُراعين ذلك القانون وعاملين به. وإذ كان في ما بينهم مَن اختاروا الحياة النُّسكيّة والانعزاليّة، ورأوا أنه من أعمال التّقوى أن يزوروا في أورشليم الأماكن التي تُرى فيها آثار إقامة الربّ بالجسد، يحسُنُ أن يُلتفَتَ الى القانون فاذا دعت الى ذلك توجيهاته جرى العمل كما لو كان تحقيقًا لأوامر الربّ. ولكن اذا كان ذلك غريبًا عن وصايا المعلّم فاني لا أعرف ما معنى إرادة العمل عندما ننصب أنفسنا قانونَ صلاح. عندما يدعو المعلّم المختارين ليرثوا ملكوت السموات لم يَعُدَّ السَّفر الى القدس من الأعمال الصالحة؛

(١) قد يكون كينستور راهبًا أو رئيسًا لأحد الأديار؛ وهكذا يكون هذا الاسم علمًا، وهو في اللغة اليونانيّة بمعنى عامل الخراج أو الجزية.

عندما عدّد التطويبات لم يُدخِل فيها عملاً كهذا. ما لا يجعل الإنسان أهلاً لطوبى، ولا أهلاً للملكوت لماذا نهتمّ له؟ فليتفحّصْ ذلك من كان ذا عقلٍ مُفكّر. ولو كان ذلك العمل مُفيدًا فلا يمكنه ان يكون صالحًا يهتمّ للقيام به طالبو الكمال. وإذ كنا نرى بوضوح ان هذا العمل يُلحق بمن اعتنقوا الحياة النظاميّة ضررًا روحيًّا، لم يعد ممّا يستحقّ الاهتمام الكبير، بل ممّا يستدعي الحذَر والتيقّظ، حتى لا يُمَسَّ من اختار الحياة لله بشيء من السُّوء والأذى.

أيّ أذًى في ذلك؟ طريقة حياة التَّقوى معروضةٌ على الجميع رجالاً ونساءً، والحشمة ميزة حياة الفلسفة؛ فهذه الحياة تتحقّق بوجودٍ هامشيّ ومنعزل، لا علاقة فيه للجنسَين اللذين يظلاّن منفصلَين أحدهما عن الآخر، فلا النساء بين الرجال، ولا الرجال بين النساء عرضة للإثارة. إن مقتضيات السّفر تحمل دائمًا على خَرْق النظام بين هؤلاء وتقود الى اللامبالاة في موضوع التقيّد بالآداب. انه يستحيل على امرأةٍ أن تجتاز مثل هذه المسافة بدون أن يكون معها مَن يحميها؛ بسبب ضعفها الطّبيعيّ تُساعَد على امتطاء مطيّتها، وعلى النزول عنها، وتُسنَّد عليها اذا توعّرت الطّريق. فمهما كانت الحال – سواء كان من يعتني بها أليفًا، أو كان من يقوم بخدمتها أجيرًا – يكون السلوك في الحالَيْن مَلُومًا: فسواءٌ تسنّدت على غريب، أو تسنّدت على قريب، يكون عملها مخالفًا لقانون العفّة. أضف إلى ذلك أن الفنادق والنُّزُل والمدن في الشرق تعبق بالإباحة واللامبالاة الشرّيرة. فكيف يستطيع الماشي في الدُّخان ان ينجو من تهيُّج العينين؟ حيثما تكن الأذن موسَّخة، والعين موسّخة، يكن القلب أيضًا موسَّخًا يتلقّى السّفاهة من العين والأُذن. كيف يستطيع الإنسان ان يجتاز هذه الأمكنة الفاسقة غيرَ متأثّر ولا مُنفعل؟ ثمّ أيّ شيء يكتسب من

يذهب الى هذه الأماكن؟ وكأنّ الربّ يعيشُ هناك بالجسد الى هذا اليوم، ويغيب عنّا، وكأن الروح القدس يّفيض عند سكّان أورشليم ويغيض عندنا؟ وفي الحقيقة لو كان من المُمكن أن نلمس حضورًا لله في كل ما نرى لكنّا نميل إلى أنّ الله يسكن في أُمّة الكبادوكيّين لا في الأماكن الغريبة. كم من المعابد هنا يُمجّد فيها اسم الله! والمعابد في العالم كلّه تكاد لا تُحصى! ولو كانت نعمة الله أغزر في أماكن أورشليم لما تفشّت الخطيئة في سكّانها، وليس هنالك اليوم شذوذ لم ينجرّوا إليه: فِسق، زنى، سرقة، عبادة أصنام، تسميم، مؤامرات، قتل. وقد تجذّر الشرُّ في هذه الأماكن بحيث انتشرت فيها جريمة القتل أكثر مما انتشرت في أيّ مكان آخر: أُناس من دم واحد ينقضّ بعضهم على البعض الآخر كوحوش ضارية، ولأجل مكسب خسيس. فعندما يجري مثل هذه الأعمال القبيحة أيُّ برهان يكون على أن النعمة أوفر وأعظم في هذه الأماكن؟

إنّي أعرف الاعتراض على كلامي من قِبَل الكثيرين؛ فهم يقولون: «لماذا لم تعتمد هذه الخطّة لنفسك أيضًا؟ إذا لم يكن أيّ فائدة من الزّيارة لمن يقوم بهذا السّفر باسم الله، فلماذا تجشّمت سُدًى هذا السَّفر نفسه؟ فَلْيُصغوا الى دفاعي. إنّه عبءٌ جعله على عاتقي مَن يحكم حياتنا عندما أتاني الأمر من المجمع المقدّس بالتوجّه الى تلك الديار لأعيد النّظام الى نصابه في كنيسة بلاد العرب. واذ كانت بلاد العرب تُتاخِم منطقة أورشليم وعدتُ بأن أقوم أيضًا، مع رؤساء كنائس أورشليم المقدّسة[٢]، بتفحّصٍ لأحوالهم المضطربة والتي كانت بحاجة الى وسيط. وفضلاً عن ذلك

---

(٢) ربّما كان هنالك خلاف بين الأسقف كيرلّس الأورشليميّ وإكليروسه، فتحاشى غريغوريوس عن التصريح.

ذلك فقد قدّم لنا الامبراطور الكليّ التقوى ما سهّل السّفر أي العربة العامّة[٣]، ولم نكن معرّضين لأي نوع من أنواع العذاب التي عاناها غيرنا، إذ إنّ العربة كانت لنا بموقع كنيسة ودير نجتاز فيها المسافة كلّها ونحن نتلو المزامير ونصوم لأجل الربّ. فلا تكن سيرتُنا إذن مبعثَ عثرة لأحد، بل فليكن نُصْحُنا موضوع ثقةٍ وتصديق، لأننا لم نذكر إلاّ ما شاهدته عينانا. وأن يكون المسيح الذي ظهر على الأرض، بالنسبة الينا الله الحقّ، قد اعترفنا بذلك قبل ذهابنا الى تلك الأماكن وبعده، وإيماننا بعد ذلك لم ينقص ولم يزدد؛ التجسّد من العذراء نعرفه قبل رؤيتنا لبيت لحم؛ قيامة الموتى نؤمن بها قبل مشاهدتنا القبر؛ الصعود الى السماء اعترفنا بصحّته قبل رؤيتنا لجبلِ الزيتون. الشيء الوحيد الذي أفدناهُ من هذه الرحلة هو معرفةُ أنّ ما لدينا أقدس ممّا رأينا[٤].

«يا أتقياء الربّ سبّحوه[٥]» حيثما كنتم. ان تغيير المكان لا يقرّب من الله، ولكن الله يأتي اليك حيثما كنت اذا كان مسكن نفسك أهلاً لأن يسكن الله ويعمل فيه، ولكن اذا كان «إنسانك الداخلي[٦]» حافلاً بالأفكار الشرّيرة فأنت بعيدٌ عن استقبال المسيح فيك بُعْدَ مَن لم يبدأوا الاعترافَ به، وذلك وإن كنتَ على الجلجلة، وعلى جبل الزيتون، وفي قبر القيامة.

---

(٣) استعمل غريغوريوس عربة البريد الرسميّة كما استعملها عدد كبير من الأساقفة في القرن الرابع.

(٤) في الرسالة الثالثة الآتية سيعترف غريغوريوس بأنّ زيارته لأورشليم كانت له سبب فرح وغبطة وسعادة وهو هنا يخفّف من مفعول هذا التأثير تمشّيًا وهدَف الرسالة.

(٥) مز ٢١ : ٢٤.

(٦) رو ٧ : ٢٢.

إنصَحْ هؤلاء الإخوة، أيّها العزيز، أن يخلعوا الجَسَد ليذهبوا الى الربّ، لا كبادوكية ليذهبوا الى أورشليم. وإن احتجّ أحد بكلام الربّ الذي يحضّ تلاميذه على ألاّ يبتعدوا عن أورشليم عليه أن يفهم معنى هذا القول. دعا الربّ رسلَهُ إلى أن يلبثوا في المكان نفسه إلى أن يُلبَسوا القوّة من فوق[٧]، وذلك لأنّ نعمة الروح القدس لم تكن بعد قد وُزّعت عليهم. إذا كان ما جرى بالأمس يجري اليوم أيضًا فيوزّع الروح القدس نعمَه على كل واحد وكأنها ألسنة من نار، كان من واجب الجميع أن يمضوا الى حيث وزّعت النعمة؛ ولكن بما أن «الروح يهبّ حيث يشاء[٨]» فالمؤمنون الذين هنا يشتركون هم أيضًا في النعمة «بمقدار إيمانهم[٩]» لا بسبب ذهابهم إلى أورشليم.

---

(٧) لو ٢٤ : ٤٩.

(٨) يو ٣ : ٨.

(٩) رو ١٢ : ٦.

الرّسالة الثالثة

من غريغوريوس الى الأختَين
الشريدتَي الفضيلة والتقوى أوسطاثيا وأمبروسيا،
والى الابنة الشريدة الفضيلة والتقوى بازيليسّا
سلامٌ في الربّ

إنّ لُقْيَا أهل الخير والصّلاح الأعزّاء لديّ، والآثار الناطقة بمحبّة الربّ لنا والتي تظهر في هذه الأماكن، كل ذلك كان لي مدعاةَ سرورٍ عظيم وسعادة لا حدَّ لها. فهذان المظهران أطلعاني على ما يكون العيد في نظر الله، وعلى الرموز الخلاصيّة لله الذي أحيانا، وسمحا لي بلقاءِ نفوسٍ تتجلّى فيها روحيًّا علامات نعمة الربّ بحيثُ يُظنّ أن بيت لحم، والجلجلة، وجبل الزيتون، والقيامة هي في قلب من يملكون الله. فإنّ من اتّخذ صورة المسيح بفضيلة ضميره، مَن سمَّر جسده بمخافة الله وصُلِبَ مع المسيح، من دحرج عنه حجر الحياة الخدّاعة الثقيل، وخرج من قبر جسده، سائرًا في جدّة الحياة؛ ومَن تخلّى عن حياة البشر العامّة والأرضيّة، وتعالى، برغبةٍ سامية، الى مستوى الحياة العليا، من تاقَ الى الحقائق السامية، حيث يوجدُ المسيح، وهو غير مُثقل بكثافة الجسد، بل مُتحرِّر بخفّة الحياة الطاهرة، بحيث ان جسده ينطلق معه كغمامةٍ في

الأعالي، هذا في رأيي يشترك في الحقائق التي ذكرتُها، والتي تتجلّى فيها ذكريات محبّة السيّد لنا.

هكذا عندما شاهدتُ الأماكن المقدّسة بطريقة محسوسة، ورأيت أيضًا فيكنّ ميزات تلك الأماكن، امتلأت نفسي فرحًا لا تستطيع الألفاظ أن تُعبّر عن عظمته. ولكن يبدو من الصّعب، حتى لا أقول من المستحيل، أن يجني الإنسان الخير خاليًا من كلّ شرّ، ولهذا خامر تمتُّعي بهذه الأمور العذبة بعضُ الشعور بالمرارة. وهكذا، بعد تمتّعي بفرح هذه السّعادة، عدتُ الى وطني بوجهٍ حزين، قائلاً في نفسي ان كلمة الربّ صادقة، تلك التي ذكر فيها «أنّ العالم كلّه تحت سلطان الشرّير[1]»، بحيث لا توجد ناحية من العالم خالية من بعض الشرّ. وإذا كان هذا المكان الذي تقبّل أثر الحياة الحقيقيّة المقدّسة غير خالٍ من الأشواك الحادّة، فما القول عن باقي الأماكن التي لم يُبذَر فيها الاشتراك في الخير بالسماع والتبشير؟ ما أُشير إليه بكلامي هذا لست بحاجة الى التصريح به والإغراق في تفسيره، فالأحداث نفسُها تجهر بما هو محزن ومؤلم أكثر من أيّ كلام معروف[2].

إن مشترع حياتنا أمرنا بالعداء، أعني معاداة الحيّة، وطلب ان لا نُطلق طاقتنا العدائيّة إلاّ في كراهية الشرّ، قال: «أجعل عداوةً بينكِ وبين المرأة وبين نسلك ونسلها[3]». وبما أن الشرّ متعدّد، ويظهر بمظاهر مختلفة فكلام الكتاب يجسّده في الحيّة دالاًّ على تعدّده بتعدُّد حراشفها. ونحن قد

(١) ١ يو ٥ : ١٩.

(٢) دُعي غريغوريوس ليكون وسيطًا في النزاع الذي نشب بين كنائس الأرض المقدّسة، والظاهر انّ البعض رفضوا وساطته، وأنّ البعض الآخر أصلوهُ نارًا حاميةً بالكلام، فعاد خائبًا حزينًا.

(٣) تك ٣ : ١٥.

أصبحنا حلفاءَ الحيّة بانقيادنا لرغبات العدوّ، وتوجّه حقدُنا من بعضنا الى البعض الآخر، وقد يكون ذلك الى من أعطانا الوصيّة؛ فقد قال: «أحبِبْ قريبك وأبغض عدوّك[٤]»، على أن نعدّ عدوًّا لنا أوحدَ من يُناوئ طبيعتنا، وقريبًا لنا كل من يُشاركنا في الطّبيعة. ولكنّ جيلنا، في قسوة قلبه، بعدما فَصَلنا عن القريب، عمل على تهييج الحيّة والاستمتاع بـرُقَطِ حراشِفها. انا أرى أنّ كُره أعداء الله أمرٌ شرعيّ، وأن هذا الكُره يروقُ الربّ، وأعدُّ أعداءً أولئك الذين ينكرون مجد الربّ، أيًّا كانت طريقتهم في ذلك، سواءٌ أكانوا يهودًا أو وثنيّين، أو من أتباع آريوس الذين بتمشّيهم في خطّه يجعلون من الخليقة وثنًا، ويكرّرون ضلال اليهود. ولكن اذا مُجّد وعُبد الآب والابن والروح القدس بتقوى، من قِبَل الذين يؤمنون أنّ في الثالوث الأقدس الخالي من كل التباس، وحدةً في الطبيعة، والمجد، والملك، والقُدرة، والـمَعْبوديّة، والمقدرة على كل شيء، ففي هذه الحال علامَ يقوم العداء؟ عندما كانت مذاهب الهرطقة راجحة كان من المُستحسن أن يُغامر الإنسانُ ويتصدّى للسلطة التي كانت تُغلِّب تعاليمَ الخُصوم، حتى لا تَخضعَ كلمةُ الخلاص للسلطات البشريّة. ولكن الآن، وقد بُشّر بالحقيقة الواحدة في الأرض كلّها، من أقصاها الى أقصاها، فكلّ من يقاوم المبشّرين بالحقيقة لا يقاوم المبشّرين بل يقاوم من يبشّرون به. أيّ هدفٍ يكون لمن تُلهبُهُ الغيرة الإلهيّة سوى أن يُبشّر بمجد الله على كل وجه؟ واذ كان الأمرُ أن يُعبدَ الله من كل القلب وكل النّفس إلهًا واحدًا، له ما للآب كُلاًّ بكلّ، وأن يمجّد الروح القدس كذلك بعبادةٍ تؤدّي له ما للآب والابن من التكريم، فما الداعي الكاذب لمماحكات جماعة التمحيص والتدقيق، أولئك الذين يمزقون القِباء الذي لا يقبل الإتلاف

---

(٤) متى ٥: ٤٣.

ويقترعون على اسم الربّ ما بين بولس وكيفا، وينكرون صلة من يعبدون المسيح، قائلين في سرّهم: «إليك عنّي! لا تدنُ مني فإني طاهر!(٥)».

لِنُسلِّم بأنّهم ذهبوا أكثر ممّا ينبغي في العرفان بالنسبة الى ما اعتقدوا فهمَهُ. هل لديهم ما يعتقدونه أكثر من أن ابن الله الحقيقي هو الله الحقيقي؟ الاعتراف بالله الحقيقي يتضمّن جميع المعاني الأرثوذكسيّة والخلاصيّة أي أنه صالح، وعادل، وقادر، وغير قابل للتحوُّل، وأبدًا هو هو، غير قابل النقصان ولا الزيادة، لأنّ النقصان مخالف لطبيعته، والزيادة لا معنى لها مع كماله: أي شيء أعلى من العلي، وأصلح من الصلاح؟ وهكذا فَمَن يُعَدُّ حاصلاً على كمال الصلاح كلّه، هو غير قابل لأيّ نوع من أنواع التغيُّر، وهو لا يُظهر فيه هذه الميزة وفاقًا للظروف والأحوال، ولكنّه يملكها أبدًا على الحال نفسها، قبل التدبير الإلهي الذي يجعل منه إنسانًا، وإبّان ذلك وبعده، بدون أن يحصل تبدُّل في طبيعته إذا ما سعى في سبيل خلاصنا. ما هو بطبيعته غير قابل الفساد والتحوُّل يبقى أبدًا على حاله، وليس من التحوّل في أن يتّخذ بتدبير إلهيّ طبيعتنا البشريّة؛ فكما أن الشمس، عندما تُرسل شعاعها في الظلام لا تضعف نور هذا الشُّعاع، ولكنّها تُحوّل به الظلَّ الى نور. كذلك النور الحقيقيّ، الذي تألَّق في ظُلماتنا، لم تُغشِّهِ الظُّلمات، ولكنَّه أنار بذاته الظُّلمات. واذ كانت البشريّة في الظُّلمات على حدّ ما كُتب – «إنهم لا يعلمون ولا يفهمون، يسلكون في الظُّلمة(٦)» – فان الذي أنار الطَّبيعة المظلمة وأرسل شعاعَ أُلوهته على مُركّبِنا، أعني النفس والجسد، أشرك

(٥) اش ٦٥ : ٥. نشِبَ خلاف بين غريغوريوس ممثل أرثوذكسيّة المجمع النيقوي وبعض لاهوتيّي أورشليم الذين خالفوه في بعض الشروح. وإن كانوا على إيمان ذلك المجمع.

(٦) مز ٨١ : ٥.

العنصر البشريّ كلّه في نوره الذاتيّ وحوّله، بهذا التّمازُج، الى ما هو عليه؛ وكما أنّ الألوهة لم تفسد بنزولها في جسد قابل الفساد، كذلك لم تتغيّر بشفائها ما هو متغيّر في نفسنا. في مهنة الطبّ، عندما يلمس الطّبيبُ جسمَ المريض لا يتحوّل هو الى مريض، بل يشفي المرضى. فلا يحسَبْ أحدٌ، وهو يُسيءُ تفسير الإنجيل، أنَّ طبيعتنا، بتطوّرٍ ونموٍّ طبيعيّ، تحوّلت شيئًا فشيئًا، في المسيح، الى حقيقةٍ أكثر أُلوهةً. إنَّ قول الإنجيل بأنّه «كان ينمو في السنّ والحكمة والنّعمة[٧]» ما هو إلاّ برهانٌ على أنَّ الربّ كان حقًّا في مُركّبنا الشريّ، بحيثُ لم يبقَ مجالٌ لرأيٍ من يذهبونَ إلى أنّ هنالك ظاهرةً مُشَكَّلَةً في صورة جسمٍ، لا ظهورًا إلهيًّا حقيقيًّا. ولهذا فما هو من مقتضيات طبيعتنا ذكره الكتاب عنه بدون خجل: الأكل، والشرب، والنّوم، والتّعب، والرضاعة، والتطوّر، والنموّ في القامة والجسد، كل ما هو من شأن طبيعتنا، ما عدا الميل الى الخطيئة. فالخطيئة هي في الحقيقة سقوط، لا ميزة من ميزات طبيعتنا، كما أنَّ المرض او التشوُّه لم يلازما طبيعتنا منذ البدء، ولكنهما يحدثان خلافًا للطبيعة. وكذلك الدّافع الذي يدفعنا نحو الشرّ، فهو انحراف للخير الذي في طبيعتنا، وليس له وجود ذاتي، وانما هو غياب الصلاح[٨]. فالذي غيّر طبيعتنا، بالقدرة الإلهيّة، حفظها، في ذاته، خاليةً من كل شائبة ومن كل مرض، ولم يقبل، باختياره الحرّ، التشوُّه الذي تجرّه الخطيئة، لأنّه «لم يقترف قطّ خطيئة، ولا وُجِدَ في فمهِ مكر[٩]». ولا نرى ذلك فيه بعد فترة من الزّمن، ولكن الإنسان منذ وجوده في حشا مريم، ذاك

(٧) لو ٢ : ٥٢.

(٨) الفكرة أفلاطونيّة: ليس للشر وجود خاص، فهو فقدان الخير.

(٩) ١ بط ٢ : ٢٢.

الذي «ابتنت الحكمةُ لها فيه بيتًا[١٠]» كان مشتركًا بطبيعته في مُركَّبِنا الخاضع للأهواء؛ ولكنه، في الوقت نفسه، صار، بحلول الروح القدس وقدرة العلي، ما هو عليه الآن من الطبيعة الخاصّة «لأن الأدنى يأخذ البركة من الأعلى[١١]». فبما أنّ قدرة الأُلوهة هي أمر لا حدّ له ولا قياس فيما ان العنصر البشريّ هو أمر ضئيل وغير ذي شأن كبير، فعندما حلّ الروح القدس على العذراء وظلّلتها قدرة العليّ، لم يَنَلْ هذا المسكنَ القائم هكذا شيءٌ من الفساد البشريّ. لقد كان في الحقيقة إنسانًا، ولكن كما كان في حاله الأولى، وكان على كل حال روحًا ونعمة اذ كانت ميزة طبيعتنا الخاصة تتألّق في فيض القدرة الإلهيّة[١٢]. واذ كان هنالك حدَّان للحياة البشريّة، حدّ البداية وحدّ النهاية كان من الضروري لمن يعتني بحياتنا كلّها أن يأخذنا بهذين الطرفين، البداية والنهاية، ليُنهض بينهما الإنسان الرّاقد. فما نعرفه بالنسبة الى النهاية، نفكّر فيه أيضًا بالنسبة الى البداية؛ ففي شأن النهاية، وبتدبير إلهيّ، أجرى انفصالاً للجسد عن النفس، ولكن الأُلوهة غير قابلة الانقسام، وقد امتزجت امتزاجًا ثابتًا بهذا الكل، ولم تنفصل لا عن الجسد ولا عن النفس: بنفسها تكون في السماء، فاتحةً الطريق للبشر بشخص اللصّ، وبجسدها تكون في جوف الأرض، مُبيدة «من كان له سلطان الموت[١٣]»، ولهذا فالجسد يُدعى هو أيضًا ربًّا بسبب الألوهة الموجودة فيه. وهكذا، في ما يتعلّق بالبداية، فإنّنا نرى أن قدرة العلي التي امتزجت بطبيعتنا كلّها بحلول

---

(١٠) ١ م ٩ : ١.

(١١) عب ٧ : ٧.

(١٢) غريغوريوس يُعلي شأن الطبيعة الإلهيّة في شخص المسيح، وهو لا يحطّ من شأن الطبيعة البشريّة، فالمسيح في نظره هوالانسان الكامل كما كان الإنسان في حالته الأولى.

(١٣) عب ٢ : ١٤.

الروح القدس، توجد أيضًا في نفسنا كما يليق أن تكون في النفس، وقد امتزجت بالجسد لكي يكون خلاصنا كاملاً في كل شيء. إلاّ أن الأُلوهة قد حافظت، في بداية الحياة البشريّة ونهايتها، على عدم التأثّر السامي اللائق بالله. وهكذا لم تكن بدايتها كبدايتنا، ولا نهايتها كنهايتنا، ولكنهما أظهرا في حاليهما القدرة الإلهيّة: فالبداية لم تتلطّخ بالدنس، والنهاية لم تَؤُلْ إلى فساد.

اذا كنّا نُعلن ذلك، ونشهد أن المسيح هو قدرة الله وحكمة الله، أبدًا بدون تغيُّر، وأبدًا بلا فساد، حتى لو وُجد في ما هو متغيّر، وقابل الفساد؛ انه بريءٌ من كل فساد، بل انّه بخلاف ذلك مُطهِّرٌ لكل دَنَس، ففيمَ نحن مُذنبون، ولماذا نَبْعَثُ على الحقد؟ وما معنى أن نُعارَضَ بهياكل جديدة؟ هل نبشّر بيسوع آخر؟ هل نعلّم غير تعليمه؟ هل نضع كتبًا مُقدَّسة أُخرى؟ هل تجرّأ أحدٌ منّا أن يدعو العذراء القدّيسة أُمًّا للإنسان لا أُمًّا لله، كما نسمع ذلك عند بعضهم بكل وقاحة؟ هل نبتدع خرافة قياماتٍ ثلاث؟ هل نعد أنفسنا بقصوفِ ألف سنة؟ هل نقول بالعودةالى ذبائح اليهود الحيوانيّة؟ هل نُميل آمال البشرَ نحو أورشليم أرضيّة، نتخيّل إعادة بنائها بحجارةٍ جميلة المظهر[١٤]؟ بأيٍّ من هذه الأمور نُتَّهم لكي نُحاكم ونُعدّ مِمَّن يجب تجنُّبهم، ولماذا يقيم بعضهك ضدَّنا هيكلاً آخر، وكأنّنا ننتهك الأشياء المقدّسة؟

بسبب ذلك وحالَ عودتي الى العاصمة[١٥]، سارعتُ، والقلب يضطرم غيظًا وحزنًا، لأُفرغ مرارةَ نفسي بالكتابة الى محبَّتِكُنَّ. أَمَّا أنتُنَّ فسِرْنَ مع الرُّوح القدس الى حيثُ يتّجهُ، ماضياتٍ في سبيل الله، غيرَ

(١٤) هذه المذاهب منسوبة الى ابوليناريوس وأتباعه، مع انها تبدو بعيدة عمّا كان يذهب اليه.

(١٥) لعلّها قيصريّة قاعدة كبادوكية لا نيقية.

مُصْغِياتٍ الى اللحم والدم، ولا معطياتٍ مجالاً للمفتخرين حتى لا يفتخروا بكُنّ ويكون لهم من حياتكنّ مطمع. اذكُرنَ الآباء القدّيسين الذين جعلكنَّ بين أيديهم أبوكنَّ الطوباويّ[١٦] الذي استحققنا بنعمة اللّٰه أن نخلفه. لا تغيّرنَ الحدود التي وضعها لكنّ آباؤُكُنَّ، لا تَحقِرْنَ الكلام البسيط في الوعظ العاديّ، لا تفضّلن التعليم المعقّد، بل اتّبعنَ طريقة الإيمان القديمة، واله السلام يكون معكنَّ. فليحفظكنَّ الربُّ سالمات النفس والجسد في غير فساد. هذا ما نطلبه لكنّ.

(١٦) قد يكون باسيليوس الكبير الذي كان له صلة وثيقة بالجمعيّات الرهبانيّة القائمة في جبل الزّيتون، والتي يبدو أن غريغوريوس أصبح لهنّ مرشدًا

الرّسالة الرابعة

الى أوسابيوس[1]

عندما يأخذ ميزان النهار في الامتداد في فصل الشتاء، عندما ترتفع الشمس في مسارها الصاعد، نحتفل بعيد ظهور النّور الحقيقيّ الذي تألّق في الجسد على الحياة البشريّة[2]. ولكن الآن وقد أصبح الكوكب، في مساره، في وسط السماء، بحيث تساوى الليلُ والنهار، انتقلت الطّبيعة البشريّة من الموت الى الحياة التي هي لنا الدّاعي الى هذا العيد العظيم والشامل الذي يحتفل به معًا من جميع الأحياء أولئك الذين تقبّلوا سرّ القيامة. ما قد يكون لي موضوعٌ هذه الرسالة؟ — اذ درجت العادة، في هذه الأعياد العامّة، أن نتبادل، بأساليب مختلفة، ما في نفوسنا من عواطف، وأن يُظهر البعضُ أحيانًا فرحهم بتبادل الهدايا، فكّرنا في أنه من اللائق أن لا نحرمك من هدايانا، بل ان نُكرم نفسك النَّبيلة والكريمة بما لدى فقرنا من هدايا وضيعة. هديّتنا التي نقدّمها لك عن طريق الرسالة هي هذه الرسالةُ نفسُها. ليس فيها خطاب مُنمَّق بعبارات متساوقة، وأسلوب بليغ تجعل من هذه الرسالة، في نظر البُلغاء من أرباب الأدب،

---

(١) المُرسَل إليه إنسان لم يتّضح أمره وهويّته. فقد لا يكون أسقفًا، وقد يكون تاريخ هذه الرسالة سنة ٣٨٦ أو ٣٩٠.

(٢) إشارة الى عيد الميلاد الذي دخل الاحتفال به الى كبادوكية قُبَيْلَ سنة ٣٨٠. يرجع فحوى هذه الرسالة الى النور الذي يأخذ بالتغلُّب على الظلمة في عيد الميلاد، ويتمّ انتصارُه في عيد الفصح.

هديّة قيّمة، ولكن فلتكن الذهب السرّيّ ملفوفًا في إيمانِ المسيحيّين كما في قطعة نسيج، يُقدَّم لك ظاهرًا للعيان قدرَ الإمكان، بهذه الرسالة، ومُظهِرًا أَلقَهُ الخفيّ"(٣).

فلنرجع الى مقدّمتنا. لماذا، عندما يهبط الليل ويبلغ ذروته، ويقف امتدادهُ، يظهر لنا في الجسد من يقبض بيديه على الكون، ويبسطُ سلطانه الذاتيّ علي الخليقة، هو الذي لا تحويه الكائنات، بل يحيط بالكون كلّه، ويتّخذ مسكنًا له في موضع وضيع جدًّا؟ إنّ قدرته العظيمة اتّفقت اتّفاقًا حميمًا مع إرادته الخيّرة، وظهرَتْ على نفس المستوى في كل مكانٍ شدَّتها إليه تلك الإرادة؛ وهكذا لم تكن القدرة، في خلق الكائنات، دون الإرادة مستوًى؛ وعندما أراد النزول الى ضعة طبيعتنا لخير البشر، لم يكن عاجزًا عن تحقيق ذلك، ولكنه أتى في هذه الحالة من غير أن يُهمل إدارة النظام الكوني. واذ كان هنالك بعض العلاقة بين هاتين الحالين – كيف يظهر يومًا في الجسد وكيف أنه في زمن تساوي الليل والنهار، يُعيد الإنسان الى الحياة بعدما عاد بالخطيئة الى التراب، – سأعالج الموضوع بإيجاز، وبقدر ما يكون ذلك بإمكاني، وسأقدّم لك هذه المعالجة هديّة لك.

لا شكّ أنّك أَدركْتَ، في حِدَّة تبصُّرك، السرَّ الذي تُشير إليه هذه الأحداث – تقدُّم الليل يقطعُهُ ازديادُ النور، والظلّ آخذٌ في التراجع فيما يزداد طولُ النهار بدفعاتٍ متلاحقة. من الممكن أن ذلك واضحٌ لُمعظم الناس، لأنّ هنالك تقاربًا بين الظُّلمة والخطيئة، وقد دُعي الشرُّ هكذا في الكتاب المقدَّس. إنّه رمز تدبير الخلاص لصالح نفوسنا هذا الزّمنُ

(٣) كانت العادة قديمًا أن يُحمل ما يُقدّم لله وللإمبراطور بأيدٍ طاهرة، فيُقدَّم على قطعةِ نسيج.

الذي يبدأُ فيه سرُّنا. كان لا بُدَّ، وقد امتدّ الشرُّ، امتدادًا لا حدّ له، من أن يظهر النّهارُ الذي يتلألأُ فينا بفضائلنا بفضل من جعل مثل هذا النّور في نفوسنا، بحيث تزداد الحياة النورانيّة أكثرفأكثر، ترفدها تراكماتُ الخير، وبحيث تتضاءَل، الى أقصى حدّ، حياةُ النّقيصة وتتلاشى شيئًا فشيئًا، إذ إنّ ازدياد الخير مَنْقصةٌ للشرّ. أما فصل الاعتدال الذي يقع فيه عيد القيامة فهو يدلّ على ذلك بنفسه أي على أنّ الحياة النُّورانيّة لن تواجه بعدُ جيشًا عدوًّا في صراعٍ يكون فيه الشرّ والخير متكافئين في السّلاح، بل ستنتصر بعدما يُلاشي فيضُ نور النهار ظلامَ الوثنيّة. ولهذا فانّ مسيرة القمر، في اليوم الرابع عشر، تبديه قُبالةَ أنوار الشمس، مليئًا بكلّ غنى تألُّقه، وآبيًا أن يستقبل أيَّ ظِلّ في أيٍّ من نواحيه. فبعدما ياخذ محلّ الشمس التي تغيب، يظلّ في سمته ولا يتوارى إلاّ بعد اختلاطِ أنواره بأنوار الشمس الحقيقيّة، بحيث يبقى في الكون نورٌ واحدٌ غير مُنقطع، مع التمييز ما بين الليل والنَّهار بظلمة خفيفة شفّافة.

هذا ما نقدّمه لك أيّها الصّديق العزيز هديّةً من نسج قلمنا الضّعيف الـمُتواضع. فلتكُنْ حياتُك كلُّها عيدًا ونهارًا عظيمًا، خاليًا، قدرَ الإمكان، من الظّلمة الليليّة.

الرّسالة الخامسة

رسالة إلى الذين لا يعتقدون أنّ إيمانه قويم طلبها جماعة سيبسطية[1]

بعض الإخوة الذين تربطنا بهم العاطفة أطلعونا على النَّميمة المدبَّرة علينا من قِبَل «أعداء السلام» الذين «يغتابون القريب في الخفاء[2]»، لا يخشون محكمة الله العُظمى، محكمة مَن قال ان كلّ كلمة باطلة ستؤدّي عنها حسابًا في الحياة الأُخرى. قالوا لنا انّ المآخذ التي فُلِقت بها آذانُهم هي أنّنا نذهب في تفكيرنا خلافَ ما عرَضَهُ آباءُ نيقية في حقائق الإيمان القويم، وأنّنا استقبلنا، بدون تبصّر وامتحان، في شركة الكنيسة الكاثوليكيّة، أولئك الذين كانوا يجتمعون سابقًا في أنقيرا بإشراف مَركلُّس. ولكي لا يتغلّب الكذبُ على الحقيقة دافعنا عن أَنفسنا دفاعًا كافيًا، في كتاباتنا الأُخرى، ودحضنا ما اتُّهِمنا به. لقد أثبتنا بشدّة أمام الربّ أننا لم نَجِد عن إيمان الآباء القدّيسين، وأنّنا لم نتصرّف بدون تبصُّر وامتحان في شأن أتباع مَركلّس الذين التحقوا بالشركة الكنسيّة؛ ولكن بما أن الإخوة والزُّملاء الأرثوذكسيّين في الشرق[3] قد وكلوا إلينا أن نتّخذ

---

(١) قد يعود تاريخ هذه الرسالة الى سنة ٣٧٩ عندما كان غريغوريوس في سيبسطية لفترة من الزّمن. كتبها تلبيةً لطلب أصدقائه وللردّ على من اتّهمه بالخروج عن الخط الأرثوذكسيّ.

(٢) مز ١١٩ : ٧ و١٠٠ : ٥.

(٣) قد يكون احد مجامع أنطاكية هو الذي كلّف غريغوريوس بهذه المُهِمّة.

قرارًا في شأن هؤلاء، قُمنا بالاتّفاق معهم على ما يتمّ إجراؤه، فسوَّيْنا الأُمور كلَّها وحسمنا الخلاف. ومع ذلك فبعدما قمنا بالدّفاع عن نفسنا كتابةً، وبعدما طلب إلينا بعض الإخوة، المتّحدين معنا في العاطفة، أن نعلن مرّةً أُخرى وبالصّوت الحيّ قانون الإيمان الذي نعتمده كليًّا، رأينا من الضروريّ، اعتمادًا منّا على الأقوال التي أوحى بها الله، وعلى تقليد الآباء، أن نوضح موقفنا في الموضوع بكلام وجيز[٤].

نحن نعترف أنَّ ما علّمه الربّ للرسُل عندما نقل إليهم «سرّ التّقوى[٥]» هو قاعدة الإيمان القويم الصَّحيح وأَصله، ونعتقد أن ليس هنالك أسمى وأوثق من هذا التّقليد. والحال أن تعليم الربّ هو ما يلي: «إذهبوا وتَلْمذوا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس[٦]». وهكذا فالقدرة التي تُحيي المولودين ثانيةً من الموت الى الحياة الأبديّة، تتأتّى، بفعل الثالوثَ الأقدس، للذين وُجدوا بإيمانهم أهلاً للنعمة. وكذلك تكون النعمةُ غيرَ كاملةٍ عندما يغفَلُ اسمُ أحدِ أقانيم الثّالوث الأقدس في المعموديّة الخلاصيّة: ليس بالابن والروح القدس فقط دون الآب، يتمّ سرّ التجدُّد؛ وليس بالآب والروح القدس، دون الابن، يتمّ كمال الحياة في المعموديّة؛ وليس بالآب والابن، دون الروح القدس، تتمّ نعمة القيامة. ولهذا فكلّ رجائنا، وكلّ ضمان لخلاص نفوسنا إنما هما في الأقانيم الثلاثة، وقد بلغتنا في هذه الأسماء الثلاثة. فنحن نؤمن بأبي ربنا يسوع المسيح، الذي هو ينبوع الحياة، وبابن الآب الوحيد الذي هو سيّد الحياة، على حدّ قول الرسول، وبروح قدس الله الذي قال عنه الرب «انه الروح المحيي[٧]».

---

(٤) اعتراف غريغوريوس قائم على ما نقله الرُّسل وعبّر عنه الكتاب المقدّس.

(٥) ١ تيم ٣: ١٦. (٦) متى ٢٨: ١٩.

(٧) طالع: يو ٤: ١٤؛ ٣: ١٦؛ ٦: ٦٣؛ اع ٣: ١٥.

واذ كانت نعمة عدم الفساد تأتينا، نحن المفتدَيْنَ من الموت، في المعموديّة الخلاصيّة، بالإيمان بالآب والابن والروح القدس، كما سَلَف لنا القول، فإنّنا نؤمن، على هذا الضّوء، بأن لا شيء خسيس ولا مخلوق، ولا غير لائق بعظمة الآب، يمكن أن يكون في الثالوث الأقدس – إذ إنّ الحياة التي تأتينا بالإيمان بالثالوث الأقدس هي واحدة، الحياة التي تنبع من إله الجميع، وتنمو بالابن، وتعمل بالرّوح القدس. فبهذا الاقتناع الكامل بأنّنا نلنا المعموديّة والرتبة الكنسيّة، نؤمن في معموديّتنا، ونسبّح في إيماننا، بانسجام المعموديّة والإيمان والتسبيح في الآب والابن والروح القدس[٨]. إذا قال أحدٌ بإلهين أو ثلاثة آلهة أو ألوهات، فليكن مُبسلاً؛ واذا قال أحد مع آريوس بأن الابن أو الروح القدس صدر عن العدم فليكن مُبسلاً. إنّ الذين يسلكون طريقة الحقيقة، ويعترفون بالأقانيم الثلاثة في خواصّهم الذاتيّة، والذين يؤمنون بوجود ألوهة واحدة، وصلاح واحد، ومبدأ واحد، وسلطة وقدرة، ولا يتنكّرون للسلطة الواحدة، ولا يسقطون في عبادة الآلهة، ولا يحسنون التمييز ما بين الأقانيم، لا يجعلون الثالوث المقدّس مركّبًا من عناصر متنافرة، بل يتقبّلون ببساطة عقيدة الإيمان جاعلين رجاء خلاصهم في الآب والابن والروح القدس[٩]. هؤلاء، في رأينا، يفكّرون كما نفكّر، ومعهم نطلب ان يكون لنا نحن أيضًا نصيب مع الربّ.

---

(٨) اتفاق الإيمان، وصيغة المعمودية وصيغة الليتورجيّا في تمجيد الآب والابن والروح القدس.

(٩) التعبير شديد التوازن، فلا تشويش في الأقانيم تمشّيًا مع السابّليائيّين، ولا غربة وتنافر تمشّيًا مع الآريوسيّين.

الرّسالة السادسة

إلى الأسقف أثلاثيوس

لقد قادنا الربُّ الى ميناءٍ أمين، كما كان ذلك منتظرًا لصلاتك التي كانت تُرافقنا، وانّي سأَروي لك بُرهانًا ثابتًا على عطف الله. ما إن تركنا وراءَنا منطقة كَيلُوسِينا حتى أطبقت علينا فجأةً كُتلة غيوم كثيفة، وانقلبت صفحة السماء الصّافية الى ظُلمةٍ كالحة، وهبّت ريحٌ باردة ما بين الغيوم وتساقطت على أجسامنا كندًى مبلّلة، مؤذنةً بهاطلٍ لا سابقَ له. الى يميننا رعود متواصلة تقصف، ووميض بروق ساطعة ومتواصلة يسبق الصّاعقة؛ جميع الجبال، من ورائنا وأمامنا ومن جِهتَيْنا، تُغلّفها الغيوم. ها هي ذي، فوق رؤوسنا، غمامة صغيرة تسوقها الريح بعنف وتصبُّ وابلاً من المطر. ونحن، كما في معجزة الإسرائيليّين، والمياه حوالينا من جميع الجهات، واصلنا سيرنا الى أُوَسْتيُنس من غير أن نتبلَّل. وما إن ترجّلنا، وسرَّحنا البَغْلَيْن، حتّى أطلق الله عنان السَّماء فتدفّق المطر. بعد ثلاث أو أربع ساعات قضيناها هُنالك، وقد نلنا من الراحة ما يكفي، وأزاح الله المطر، انطلقت العربةُ بأسرعَ من ذي قبل، لسهولة انزلاق العجلات على الوحل البليل والخَفيف. الطريق ما بين هذا المكان ومدينتنا الصَّغيرة تمتدّ كلُّها مع النهر[1]، منطلقةً مع المجرى. على مقربةٍ من ضفّتَي النّهر سلسلة من القرى،

---

(١) كان غريغوريوس قادمًا من الجهة الشرقية لأن النهر هَالِس يجري من الشرق الى الغرب، ومدينة نيصّص على بعد نحو ٧ كيلومترات جنوبيَ النهر.

تقع جميعها الى جانب الطريق، وتفصلها بعضها عن بعض مسافاتٌ صغيرة. وكانت هذه الطريق، بسبب تعاقب المساكن، حافلةً بالناس، أقبل بعضهم لاستقبالنا، وأحاط بنا البعض الآخر يمتزج فرحهم بدموعهم الغزيرة. رذاذٌ خفيف، قليل الازعاج، كان يرطّب الجوّ، ولكن قُبيل وصولنا الى مدينتَنا الصغيرة سال الغيمُ الذي كان فوقنا همرةً أشدّ غزارة؛ وهكذا كان دخولنا في هدوء وسكينة اذ لم يَدرِ أحدٌ بمجيئنا. ولكن ما إن دخلنا الرّواق، والعربةُ تدوّي على أرضٍ جافّة، حتى فوجئنا، لا أدري من أين ولا كيف، بجمهورٍ غفير من الناس، مُتراصّ الحشد، يطوّقنا بحيثُ امتنع علينا النّزولُ من العربة، اذ لم نجد حوالينا مكانًا خاليًا من البشر. كان من العسير جدًّا أن نُقنعهم بإفساح المجال أمامنا للنزول، وأمام البَغْلَين للمرور، وكنّا نتقدّم في زحمةٍ شديدة من الناس كاد فيضُ محبّتهم يُفضي بنا الى الإغماء. وما إن وصلنا الى داخل الرّواق المحيط بالساحة حتى شاهدنا نهرًا من النار ينهمر نحو الكنيسة: مَصَفُّ العذارى، في أيديهنّ مشاعل الشمع، يتقدّم، في صفٍّ منتظم، نحو مدخل الكنيسة، ونور المشاعل ينير الوجوه. دخلتُ وسُررتُ وبكيتُ مع الشعب(٢) – كان باستطاعتي أن أجمع في وقتٍ واحد، هاتين العاطفتين، وأنا أرى جمهور الشعب أمامي –، وما إن خُتمت الصلوات حتى قمتُ بكتابة هذه الرسالة الى قداستك في أسرع وقتٍ ممكن بسبب حاجتي الملحّة، بعد الرسالة، الى الاهتمام بجسدي.

---

(٢) هذا الاحتفال يشير الى أن غريغوريوس عاد بعد غياب طويل، ولعلّها العودة من المنفى.

الرّسالة السابعة

إلى الحاكم هِيارِيوس[1]

لدينا قانون يقضي بأن نبكي مع الباكين ونفرح مع الفرحين، ولكن يبدو لي أنَّ واحدًا من هذين الأمرين مُطبَّقٌ عندنا دون الآخر. شديدةٌ نَدرةُ النّاعمين باليُسر الى حدٍّ أنه من الصَّعب أن تجدَ مَن تستطيع مشاركته في الخيرات، فيما تنعم الفئة الأخرى المعاكسة بخصبٍ شديد. أفتتح كلامي بهذه المقدّمة بسبب المأساة التاعسة التي قدّمها على مسرح الحياة شيطانٌ لئيم بأشخاص كانوا أبدًا شُرفاءَ مُحترمين. شابٌّ من سلالة كريمة، اسمه سيناسيوس، له مع أسرتي نسَب، في زهرة العمر، أحاطت به الأخطار الشديدة ولَمَّا ينعَمْ عمليًّا بالحياة بعد. إنقاذهُ بيد الله، وبعدَهُ بيدك أنت الذي وُكل إليه سلطان الحياة والموت[2]. لقد وقع أمر يؤسفُ له عن غير قصد – ومن يقصد أمرًا مُنكـرًا بملء إرادته؟ والآن فالذين أقامُوا عليه هذه الدعوى التي تهدّد حياته جعلوا من هذا الأمر المؤسف رأس الاتّهام. إنّي سأعمل على توجيه رسالة خاصّة الى هؤلاء الأشخاص، محاولاً إقناعهم بالتخلّي عن الثأر؛ ولكن في ما يتعلّق بعطفك، فإني أرجوه أن يكون مع ما هو سديد ومعنا نحن، فيتغلّب الفضلُ على تَعْس

(١) قد يكون هياريوس هذا حاكم كبادوكية سنة ٣٨٠، او حاكم احدى الولايات التي يقطنها احد أقارب غريغوريوس.

(٢) كانت مهمّة الحاكم الأساسيّة أن يبتّ بالأحكام، وكان له سلطان العفو والإعدام.

هذا الشاب، ويجد وسيلةً تُنقذهُ من الخطر، فيُخزى الشيطان الشرّير الذي يقاومهُ بفضل اهتمامك وعنايتك. لقد أفضيتُ إليك بإيجاز بكلّ ما أرجوه؛ أمَّا الإيحاء المفصَّل بطريقة معالجة هذه القضيّة فليس لي أن أقوله، وليس لك ان تُطلَعَ عليه.

الرّسالة الثامنة

إلى الحاكم أنطيوخيانُس

إلى الذي يحمل الحكماء على شدّة الإعجاب بملك االمقدونيّين – انهم أقلّ إعجابًا به لانتصاراته على المادّيين، ولأحاديثه عن الهند والأقاليم القريبة من الأوقيانس، من إعجابهم به لقوله ان أصدقاءه هم كنزُهُ – الى هذا أدّعي أنا أيضًا التعالي بدوري الى مستوى ما يُعجِب فيه[1]. وانه لمن الأحقّ أن أخاطب نفسي بمثل هذا الكلام، لأنني في الحقيقة غنيٌّ بالصداقات، وبمثل هذا الغنى قد أتفوَّق على مَن كان يفخر بذلك. فمن كان له صديقٌ بالقدر الذي كنتَه لي، أنت الذي تقاوم نفسك بكلّ نوع من أنواع الفضيلة[2]؟ لا أحد يستطيع أن يتّهمني بالمصانعة عندما أقول هذا القول، وذلك اذا نظر الى سنّي والى سيرتك. لم تعد المصانعة من شأن الشعر الأبيض، والشيخوخة غير صالحة للمُمالقة. ولو كنت في سنّ الممالقة وتوجهتُ إليك بالمديح لما وقع المديح في غير موقعه لأنّ سيرتك، قبل كلّ كلام، تبدي استحقاقك للمديح. وإذ كان من خواصّ المُثْرين ان يعرفوا كيف يحسنون استخدام ما يملكون، وإذ كان أفضل استعمال للخيرات الحاضرة هو في أن يُقدّم للأصدقاء ما يملك على أنه

---

(١) أسلوب بلاغي كان يعتمده أساتذة البلاغة في ذلك العهد.

(٢) كان فلاسفة ذلك العهد يقولون ان الفلسفة تقتضي جهدًا لكي يتحرّر الإنسان من عبودية الجسد والأهواء، وفي كلام غريغوريوس صدى لهذه الفلسفة.

خيرٌ مُشترك، وإذ كان ابني اسكندر المحبوب جدًّا صديقًا لي ومتعلّقًا بي أكثرمن أي شخص آخر تعلّقَ أمانةٍ كاملة، أرجو ان تسمح لي بأن أريَهُ كنزي، لا أن أُريه فقط، بل أن أقدِّمه له بسخاء لكي يستعمله مُفيدًا من حمايتك في الأمور التي كانت سببًا لمجيئه، لأنّه بحاجة الى معونتك. انه يحدّثك هو بنفسه عن قضيّته كلّها؛ وهكذا يكون الأمر أوفق من ان أعرضه بالتفصيل في رسالة.

الرّسالة التاسعة

إلى ستاجيريوس[1]

يُقال إن الممثّلين على المسارح يُحيون مشهدًا على الطّريقة التّالية: يختارون موضوعًا لمشهدهم أسطورةً مُقتبسةً من التاريخ أو من إحدى الروايات القديمة، وبألاعيبهم يروون القصّة للحُضّار. هكذا يَرْوون سلسلة الأحداث: بعد ارتدائهم بالثّياب والأقنعة، وبعد إنشائهم على المسرح، بالستائر والجداريّات، مشهدًا يشبه المدينة، يمثّلون على ذلك المسرح تمثيلاتٍ حيّة للأحداث تأخذ بعيون الحضّار وعقولهم، وكأنّهم هم وجداريّاتهم وأحداثهم المدينة في الحقيقة والواقع. إلى أين أنا ماضٍ في عرضي هذا؟ بما أنّنا بحاجة الى أن نبيّن للمجتمعين هناك أن ما ليس بمدينة هو في الحقيقة مدينة، أرجوك أن تصبح بالصُّدفة أَحدَ سكّان هذه المدينة، وأن تبعث بحضورك في هذا المكان المُقفِر ما يوهم بأنه مدينة. المسافة ليست طويلة والحظوة التي توفّرها لنا عظيمة جدًّا. إننا نريد أن نَظْهَر للمجتمعين بدرجةٍ أعلى من الأُبّهة عندما نزدانُ بحضوركَ دون سائر الزّينات.

---

(١) قد يكون ستاجيروس سُفسطائيًّا كتب الى غريغوريوس الرسالة ٢٦ فأجابه غريغوريوس بالرسالة ٢٧. وكان معلّمًا للبلاغة في قيصريّة، وكان على ما يبدو وثنيًّا، فغريغوريوس يدعوه الى نيصّص حيث ينعقد اجتماع مهمّ لذوي الرأي والأدب، وبين نيصّص وقيصريّة حيث يُقيم السفسطائي مسافة ثلاثة أيام سفر؛ وبسبب هذا البعد رأى البعض ان الفيلسوف كان في أوسيانا وهي على مرحلة واحدة من نيصّص.

الرّسالة العاشرة

إلى أوترايوس أسقف مَليتينس

كزهرةٍ في الربيع، كتغريدِ عنادِلَ، كبحرٍ ساجٍ تُلامسهُ رياحٌ ليّنة، كحقلٍ مؤنقٍ في نظر حارثيه، سواءٌ برعمت فيه الحياةُ الخضراء أو تموَّج بالسَّنابل الصَّفراء، كمُتعةٍ يبعثُها في النفس منظر كرمةٍ شديدة الحَمْل معروشةٍ تُظلِّل أغصانَها بأوراقها، هكذا أنار ربيعُكَ الروحيّ بأنواره الهادئة، حياتَنا، وطرد الظِّلَّ بالضّياءِ المُنبعِثِ من رسالتك. قد يكون من الملائم أن نقول، في شأن الخيرات الحاضِرة، ما قاله النبيّ الذي رأى أن هنالك تعادُلاً ما بين الآلام الكثيرة التي في قلوبنا والتعزيات التي تأتينا من الله، بفضل صلاحك، وتُبهجُ نفسَنا وتبعث فيها الدّفءَ والحرارة بعدما آذاها الجليد. تساوتِ الشِدّة في حالَي المكارِهِ، وعذوبةِ إنعامك. واذا كان بخبر مجيئك السارّ بعثتَ في نفوسنا هذا الابتهاج العظيم الذي نقَلَنا من الألم المبرّح الى حالةٍ من الصَّفاءِ المُريح، فكيف بالحري يكون ظهورك في ما بيننا، وحضورك الغالي عندنا؟ أيّ تعزية ستكون لنفوسنا عندما يتردّد في آذاننا صوتك العذب! عسى ان يكون ذلك قريبًا بمعونة الله الذي يُحيي أرواح المتواضعين ويُهدئ قلوب المُنسحقين. إعلم أننا اذا نظرنا الى حالنا نالنا ألم شديد ممّا نحن فيه الآن ومما سنكون عليه في ما بعد؛ ولكن عندما ننظر الى سيادتك نحمد عناية الربّ وتدبيرها لكوننا على مقربة منك، وبإمكاننا

الإفادة من أخلاقك الحلوة، والامتلاء من غذاءٍ كهذا الغذاء، اذا كان من الممكن الشّبَع من مثل هذه الخيرات[١].

---

(١) أوترايوس أسقف مليتينس على الفرات، من ألمع رجال الكنيسة لذلك العهد، وقد ظهر اسمه في عدة مجامع مسكونيّة، يبدو ان غريغوريوس وجه اليه هذه الرسالة من سيبسطية لا من نيصّص، وهي أقرب من مليتينس أي على بعد ستّة أيام، فيما بين نيصّص ومليتينس ١٣ مرحلة أي ٣١٨ ميلاً.

الرّسالة الحادية عشرة
إلى الأديب أوباطريوس (١)

فيما كنتُ أبحث عن مقدّمةٍ لرسالتي في ما هو مُبتكَر وموافق ممّا درجتُ عليه أي من قراءاتي للكتاب المقدّس، رحتُ أتساءَل عما يكون لذلك من فائدة، لا أني لم أقع على شيء ملائم، بل لأني رأيتُ من غير المُناسب أن أكتب في مثل هذه الأمور لمن لا يعرفونها. انّ الإكباب من قِبَلنا على الثقافات الدُّنيويّة هو دليل على عدم اهتمامنا بالعلوم الإلهيّة[٢]. سأدعُ هذه وأستخرج ممّا لك مقدّمة لرسالتي الى حكمتك. إن أبا حضارتكم[٣] تخيَّل شخصًا[٤] يبتهج في شيخوخته عندما يشاهد، بعد أعذِبةٍ طويلةٍ، ابنه الخاص وحفيده. وسبب ابتهاجه هو التّنافس القائم بين أوليس وتلماخس[٥] لبلوغ الهدف. ما الفائدة والهدف من ذكر هؤلاء في مطلع خطابي هذا؟ ذلك أنكما انت وأباك الرّائع في كل حال، عندما جعلتماني بينكما كما جُعِل لايَرْتس، وحينما تتنافسان، لنيل

---

(١) أوباطريوس شخص مجهول قد يكون غير مسيحيّ أو مسيحيًّا فاترًا.

(٢) هذا نموذج من الإعلانات المبدئيّة التي يردّدها آباء ذلك العصر مع كونهم من أوسع الناس اطّلاعًا على الثقافات اليونانيّة وغيرها، ومن أشدِّ الناس تأثُّرًا بأساليبها البلاغيّة.

(٣) يعني هوميروس.

(٤) لايَرْتس هو ملك إيثاكي ووالد أُوليس شاخ وهو ينتظر عَوْدة ابنه الذي قام برحلة طويلة وتعدّدت في وجه عودته الأحداث، وقد جَدّدت أثينا شبابه بأعجوبة منها.

(٥) تلماخُس هو ابن أوليس راح يطلب أباه تقوده أثينا.

الجائزة، بما أبديتما من تقديرٍ ومحبّةٍ لنا، مُوالِيَينِ الرسائل إلينا، الواحد من البنطس والآخر من كبّادوكية. وماذا أعمل أنا العجوز؟ اني أَتَتَبَّع سعيدًا اليوم الذي أرى فيه مثلَ هذا التنافُس بين الابن وأبيه. عساك لا تتوقّف أبدًا عن تحقيق أمنيّةِ أبٍ فريدٍ ورائع، وعن أن تتفوّقَ على المجد الأبويّ بأعمالٍ أروع وأسمى. هكذا أكون الحكَم السَّعيد ما بينكما، فأنيلك جائزةَ التفوّق على أبيك، ثم أُنيل أباك جائزة التفوُّق عليك. أما نحن فسنتحمّل قسوة إيثاكي، التي لم تصبح هكذا بالحجارة بل بأخلاق سكّانها، وقد كثُر فيها الخُطّاب والذين يلتهمون خيرات من يُطْلَبْنَ للزواج، أولئك الذين يهينون الخطّيبة ويعرّضون قداسة الزواج للانتهاك، سالكين سلوكًا يوافق، على ما اعتقد، سلوك ميلانتو[٦]، أو أيّ امرأةٍ أُخرى مشابهة لها، ولكن ليس هنالك من يردعهم بقوسه! ترى كم هذينا، في شيخوختنا، في موضوعات لا تتلاءَم وما نحن فيه؛ وعلى شعري الأبيض أن يحصل لي على صفحٍ سهل! من نكبات التقدّم في السنّ أن تضعف العينان وسائر الأعضاء، وأن نتكلّم في لا شيء. أمّا أنت، فبسرعة رسائلك وحيويّتها وما فيها من تقدير وتكريم، تُجدّد ما كادت السنون تذهب به؛ وترمّم ما صدّعته فيّ الأيّام بهذه المعاملة الجميلة التي تلائم الشّيخوخة.

---

(٦) ميلانتو هي خادمة أوليس وهي من الذين لم يُحسنوا استقبال أوليس عند عودته، وقد نظر اليها غريغوريوس نظره الى امرأة سيئة السّيرة. – أما أوليس فعندما وصل الى إيثاكي وجد أن كثيرين يتنافسون لخطف زوجته بنيلوب. – غريغوريوس يشبّه سكّان نيصّص بسكّان إيثاكي في تنافسهم على بلوغ أربهم في خطف زوجات ثريات طمعًا بثرواتهنّ، وكانت عادة الخطف شائعة آنذاك، وقد أتى النزينزي على ذكرها في تأبينه لباسيليوس. والجدير بالذكر ان غريغوريوس يشبّه نفسه بلايرتس في الشيخوخة فيأتي على ذكر شعره الأبيض، وهذا مألوف عنده، وقد اختلف المؤرّخون في تاريخ هذه الرسالة ورأوا في الأمر أن المرسّل إليه أصغر سنًّا من غريغوريوس فخاطبه خطاب متقدّم في السنّ، وغالى في وصف شيخوخته بعض المغالاة.

الرّسالة الثانية عشرة

إلى الشخص نفسه

إنّ زهوةَ الربيعِ وطبيعتهِ لا تتلألأ فجأةً بل انها تُمهّد لهذا الفصل؛ هذا شُعاعٌ يبعث الدفءَ بهدوءٍ في جليد الأرض، هذه زهرة تظهر نصفَ مختبئةٍ وراءَ تَلْعةٍ، أنسامٌ تجري على الأرض لكي تتغلغل في أعماقها طاقةُ الهواء المُخصِبة والمُحيية. هنالك أيضًا العشبُ الجديد، والطيور التي هجّرها الشتاء، وأمور أخرى مشابهة هي بشائر الربيع أكثر ممّا هي الرّبيع نفسه؛ إنها هي أيضًا مُمتِعة لأنّها مقدّمة لما هو الأشدُّ إمتاعًا. ما معنى خطابي هذا؟

بما أنّ مقدّمة الكنوز التي فيك كانت في قدومك إلينا برسالة تُبشّرنا في مطلعها الجميل، بما يمكننا انتظاره منك، فإننا نتقبّل عواطفك الطيّبة التي تظهر كإحدى أزهار الربيع الأولى، آملين ان ننعم قريبًا بكل الموسم الجميل الذي فيك. واعلم أننا تحمّلنا بصعوبةٍ قسوةَ الصَّقيع وقسوة الأخلاق في هذا البلد. وكما أن الجليد يتسمّك على السطوح كلما جرى عليه الماء – اتّخذ مثالاً من الحال التي نحن فيها – وكلما سالت عليه الرطوبة وانتشرت عليه وتحجّرت حواليه وزادت في حجمه، كذلك أرى شيئًا مثيلاً فيما يتعلّق بالأخلاق عند أغلب من يسكنون هذا المكان. إنّهم أبدًا يفكّرون في الشرّ ويسعون وراءه، والى السُّوءِ الذي يأتون به يُضاف

آخر، وآخر، وآخر بلا انقطاع. ليس في نظرهم حدٌّ للحقد والإغراق في الرذائل، بحيث انّنا بحاجة الى كثيرٍ من الصلاة لكي ينفحنا الروح بنعمته فتُذيب قسوة الحقد، وتَحْطِم جليدَ السُّوء المتجمّد فيهم. ولهذا فالرَّبيع الذي هو بطبيعته مُمتع، يصبح أكثر إمتاعًا عند الذين ينتظرونك بعد مثل هذا الشتاء. فلا تتأخَّرِ النعمة، ولاسيّما وان النهار المقدّس يقترب، فمن الأولى ان يُكرِمَ الوطنَ أَبناؤُه من أن يُكرم أبناؤنا البنطس[1]. تعالَ أيّها الصَّديقُ العزيز حاملاً معك الخيرَ؛ فانك أنتَ ملءُ الخير والبركة في ما بيننا.

---

(١) هذا القول يدلّ على ان غريغوريوس يكتب من كبادوكية، من نيصّص، الى شخص موجود في البنطس، الى شخص مسيحي متقدّم في السنّ، وغير الشاب الذي وجّه اليه الرسالة السابقة؛ وذلك كلّه يبدو من اسلوب الرسالة ولهجة الخطاب.

الرّسالة الثالثة عشرة

إلى ليبانيوس

سمعتُ خبيرًا في الطبّ يروي حدثًا عجيبًا من أَحداثِ الطبيعة، وهذه كانت روايتُه. قال: كان رجلٌ تحت وطأة مرضٍ عضال من أصعبِ الأمراض الشفاءُ منه، وكان ينعى على فنّ الطبّ كونه أقلّ فعلاً ممّا كان يُنتظر منه، لأنّ كل ما بُذل له من عناية كان بلا فائدة. وفي ما هو على هذه الحال أتته، على غير انتظار منه، أخبارٌ سارّة، فكان من ذلك أن شُفي المريض من غير تطبيب، فإمَّا أنَّ نفسَهُ، بزيادة انشراحها، حوّلت حال جسده الى ما كان يرجوه، وإمّا أن يكون هنالك سببٌ آخر لا أعرفُه: ليس لي من الفراغ ما يُتيح لي التفكير في مثل هذه الأمور، والذي نقل إليَّ الخبر لم يوضح السبب. وأعتقد أنّ تذكّري لهذا الخبر الآن لم يكُن عن عبث. فقد كنتُ في حالة تمنّيتُ أن لا أكونَ فيها – ليس من الضروريّ الآن أن أُعدِّد بدقّةٍ أسباب المتاعب التي عانيتُها منذ كنتُ بالقرب منك، وما زلتُ أُعانيها حتى الآن – وفجأةً جاءني أحدهم بخبر رسالةٍ آتية من ثقافتك التي لا تُضاهى. وما إن تسلّمتُ الرسالة ووقفتُ على محتواها حتى شعرتُ بأنّني كَمَن يتهافت عليه الناس ليُهنّئوه بالمآتي الجِسَام التي أنجزها – ذلك لما علّقتُ من الأَهميّة على الشهادة

التي آثرتَنا بها في رسالتك. وكذلك حال جسمي التي تحسَّنت في الحال؛ وأنا أيضًا أستطيع أن أروي لك الخبر الغريب نفسه، إذ إنني قرأتُ قسمًا من الرسالة وأنا بعدُ مريض، وقرأتُ قسمًا آخر وأنا جدُّ مُعافًى.

ولنقفْ عند هذا الحدّ في الموضوع. وبما أن ولدنا سيناجيوس كان لنا مِرسالَ هذه النعمة فإنّك أنت، بما لك من ميل فريد الى الخير، تستطيع أن تكون داعية خير لا لنا فقط بل للمحسنين الينا أيضًا؛ والحال أن هذا الشخص كان محسنًا إلينا، كما قيل، لأنّه كان وسيلةً لنقل رسالتك إلينا، ولهذا فهو جدير بالمكافأة.

أمّا بالنسبة الى معلّمينا فاذا كنت تريد أن تعرف على يد من حصلنا على بعض المعرفة، فما عليك إلاّ أن تطلب ذلك عند بولس ويوحنا وسائر الرُّسل والأنبياء، ما لم يكن من الجسارة منّا أن ندَّعي الأخذ عن مثل هؤلاء الأشخاص. ولكن اذا كنت تتكلّم عن حكمتكم التي يقول العارفون انها تنسكبُ منك الى جميع من لهم نصيب في البلاغة – فقد سمعتُ ذلك من تلميذك، ابي ومعلّمي[1]، باسيليوس العجيب، الذي كان يعلنُه للجميع – فاعلم انه ليس لي شيءٌ بارز اذكره في سلسلة معلّميّ. في مدّة وجيزة كنتُ تلميذًا لأخي بكلمته الإلهيّة، ولكنني كنت غير مصقولِ الذهن حتى استطيع الاعتراف بالخسارة التي يخسرها أولئك الذين لم يتلقَّنوا البلاغة. ثم انّي قضيتُ الوقت، عندما أُتيح لي ذلك، في مطالعة آثارك برغبة شديدة، فأُغرمتُ بروعة بيانك، والى الآن لم أفقد هذا الغرام. فلو كانت طاقاتُنا، في نظري، باطلة لما كان لنا أيّ معلّم

---

(١) عدّة مرات يدعو غوريغوريوس أخاه باسيليوس أباه ومعلّمه، هذا النصّ الوحيد الذي نجد فيه أنّ باسيليوس كان تلميذاً لليبانيوس، وقد يكون ذلك نحة سنة ٣٤٨ – ٣٤٩ يوم كان ليبانيوس في القسطنطينيّة وقبل أن ينتقل باسيليوس الى أثينة.

في أيّ مكان. وإذ كان من غير المسموح به أن نخالفك في الرأي الذي رأيته فينا ونعدَّه غير صحيح، وأنت الخبير في البلاغة ونحن على غير جهلٍ بها - في نظرك على الأقلّ - فاسمحْ لنا أن نتجرّأ ونُرجع إليك مصدرَ طاقاتنا؛ فلئن كان باسيليوس هو الذي لقّننا البلاغة فإنّ غِناه صادر عن كنوزك؛ لقد نهلنا من خيراتك وإن عن غير طريقك. ولئن كان ذلك شيئًا زهيدًا، فزهيد أيضًا الماء في الجِرار، ولكنّه يأتي من نهر النيل.

الرسالة الرّابعة عشرة
إلى ليبانيوس السُّفسطائيّ

من عادة الرومان، جريًا على تقليد قديم، أن يحتفلوا بعيد الانقلاب الشتويّ عندما ترتفع الشمس نحو المناطق العُليا ويأخذُ قياسُ النهارُ في الطّول. يُعدُّ بدءُ هذا الشهر لديهم مقدَّسًا، وإذ يجعلون فيه فألهم للعام كلّه، يعكفون على الزيارات، وحفلات الأفراح، ومكاسب التيمُّن[1]. إلامَ أرمي في افتتاح رسالتي هذه؟ أرمي إلى أني أنا أيضًا قضيتُ هذا العيد بالطريقة نفسها وفي جعبتي ذهب. في هذه اللحظة تقبض يدي على الذهب، لا ذلك الذَّهب العادي الذي يستهوي الحكّام، ويقدّمه أصحابه هدايا، هذه المادّة الثقيلة، المُخزية التي لا حياة فيها، ولكن ما هو، في نظر من وُهبوا بعض الذكاء، أرفع من كل غِنًى، ما هو في الحقيقة أجمل هدية في نظر بنذارس، أعني رسالتك وما فيها من غِنًى عظيم. لقد جرى ذلك يومَ كنتُ في زيارة لعاصمة كبادوكية، إذ صادفتُ أحد الأصفياء وقدّم لي هذه الهبة، الرسالة، كبشارة عيد. وفي شدّة فرحي جعلتُ من هذا المكسب ملكًا عامًّا لجميع الحاضرين؛ فكانوا جميعهم فيه مشتركين، وكان كل واحدٍ يُنافس الآخر للحصول على الكل،

(١) لم يفتتح غريغوريوس رسالته هكذا عن عبث، فقد عالج ليبانيوس هذا الموضوع في اثنتين من خطبه، ولا شك في ان غريغوريوس اطلع عليهما أو على واحدة منهما فأراد بهذه الإشارة تكريم مُراسِله.

ولم أكن أنا بذلك مغبونًا. وبانتقال الرسالة إلى أيدي الجميع أصبحت ثروةَ كلَّ واحدٍ منهم الخاصّة، وكان بعضهم يحفرون نصّها في ذاكرتهم بتكرار قراءَته، وبعضهم على ألواح، وعندما عادت إلى يديَّ زادتني ابتهاجًا أكثر ممّا يُبهج المعدنُ عيونَ عاشقي الذَّهب. وكما أن الفلاَّحين - استعمل مثلاً ممّا هو مألوفٌ لديَّ - يستفيدون من ثمرة أتعابهم السّابقة لينهضوا بأعباء جديدة، كذلك نرجو، مع طلب المعذرة، ان تسمح لنا، بعدما بذرنا ما قدّمته لنا، ان نُعاوِدك بالكتابة لكي نحملك على تكرار الكتابة إلينا.

من جهة أُخرى، أطلب اليك، باسم الأحياء، أن لا تعود الى التفكير في ما ألمحتَ اليه في ختام رسالتك. أقول ان القرار الذي اتّخذته غير جيّد، وذلك عندما يُخطئ البعض ويستعيضوا عن اللغة اليونانيّة باللغة البربريّة، بانخراطهم في جنديّةٍ مرتزقة، وإيثارهم أجر الجنديّة على مجد الكلمة الجميلة[٢]. فترى انه قُضي على البلاغة وان الحياة ستفقد الكلمة. مَن يُسمِع صوتًا اذا أنت نفَّذت هذا التهديد الرهيب للبلاغة؟ قد يكون من المفيد أن أورد مقطعًا من كتابنا المقدّس: ان اللوغس لدينا يأمر من يستطيعون عمل الخير بأن لا ينظروا إلى استعدادات من يُحسنون إليهم - فيكونوا رحماء لمن خلُصت عواطفهم، ويعدلوا عن ناكري الجميل - بل أن يقتدوا بموزّع كل شيء، الذي يجعل خيرات الخليقة شائعةً بين الناس سواء كانوا صالحين أو غير صالحين. وانطلاقًا من ذلك، أيها الصَّديق الكريم، واصل مسيرة حياتك كما برزت في السابق. الذين لا يرون

---

(٢) كانت اللغة اللاّتينيّة إذ ذاك لا توصل إلاّ إلى وظيفةٍ كالجندية وأعمال الدولة والمؤسّسات. وقد شكا ليبانيوس عدّة مرّات من تحوّل الشبّان عن مدارس السفسطائيين وذهابهم إلى بيروت لدراسة الحقوق باللاّتينيّة، أو إلى رومة لتعلم لغة سكّانها.

الشمس لا يمنعون وجود الشمس؛ ثمّ أليس من المؤسف أن يختفي بريق بلاغتك بسبب من أغلقوا حواسّ نفسهم.

أرجو أن يظلَّ سيناجيوس بعيدًا عن المرض الشائع الذي فتك بالشبّان، ويُكبّ بكل رضًى على درس البلاغة. وان تلكّأ وجب اضطرارُه وإرغامهُ على ذلك، لأن الذين تنكّبوا اليوم عن البلاغة قبله كانوا فاشلين حقيرين يلازمهم الخزي والعار.

الرسالة الخامسة عشرة

إلى يوحنا وإلى مكسيميانُس[1]

إننا نحن الكبادوكيّين محرومون من شتّى الأمور التي تُسعِد من يملكونها، ولا سيّما الكتابة والنَّسخ. هذا هو سببُ تأخُّر ظهور كتابي، فانني منذ أمد بعيد أنهيتُ الردّ على البدعة[2]، ولم يكن لديّ ناسخ، وقد يُفسّر هذا النقص بأنه إهمال من قِبَلِنا أو عجزٌ عن الردّ. ولكن الآن، وقد وُجد، بنعمة الله، الناسخُ وقارىءُ النص المدقِّق في صحّة نسخه، ارسلتُ اليكما الكتاب لا هبةً منّي، كما يقول ايسوكراتِس – إذ لا أرى فيه من الميزات ما يجعله ذا قيمة كبيرة – ولكن لكي يكون لكما حافزًا، وانتما في كامل نشاط الشباب، على مناهضة الخصوم، فتستيقظ فيكما جرأة الشباب بدافع حميّة شيخ عجوز. وإذا كان فيه ما يَحْسُن في اذن السُّفسطائي، فاختارا له منه بعض المقاطع، ولا سيّما تلك التي تسبق النقاش وتمتاز بأسلوبها، وقدّماها له. هنالك أيضًا مقاطع من القسم اللاهوتي قد تبدو له غير خالية من الرّوعة. ولكن اعلموا ان ما تقرؤونه إنّما تقرؤونه لأستاذ لامع وخبير.

---

(١) يبدو ان هذين الشابّين تلميذان من تلامذة ليبانيوس الذي يطلب غريغوريوس منهما أن يُطلعاهُ على أحد مؤلّفاته.

(٢) أي بدعة أفنوميوس، وقد يكون كتاب الردّ هذا الذي تشير إليه الرسالة هو الكتاب الأوّل «ضد أفنوميوس».

الرسالة السادسة عشرة

إلى استراتيجيوس[1]

كما يفعل لاعبو الطّابة عندما يقفون على شكلِ مُثلَّثٍ ويتداولونها تناوبًا بقذفها من الواحد إلى الآخر بحذق – فيخدعون مَن، في الوسط، يثب إليها؛ ويتظاهرون، بالحركة التي يُبدونها بشخصهم أو بيدهم، أنهم يقذفونها إلى اليمين، وإلى الشمال، في الجهة التي يرونه مندفعًا إليها، ثم يقذفونها إلى الجهة المعاكسة، ويُخفون بهذه الحيلة حركة اتّجاهها – هكذا يسلك أيضًا الآن أكثرُنا؛ ندع الرصانة جانبًا، ونلعب بالطّابة بحذقٍ مع الناس، خادعين نفوسَ من وضعوا ثقتهم فينا بأعمال غير مستقيمة، بخلاف ما نعدهم به من صالح الرجاء. رسائل مصالحة، عواطف صداقة، علامات عرفان للجميل، هدايا، معانقات حارّة بالمراسلة، تلك هي الحركات الخادعة المتجلّية في تحرُّك الطابة إلى اليمين؛ ولكن بدلاً من العطف المُنتظر، الاتهاماتُ، والشكوك، والافتراءات، والملامات، والشكاوى، والادّعاءات المنحازة والكاذبة[2]. طوبى لكم في استطاعتكم الرجاء، أنتم القائمين على الثقة الكاملة بالله. ومع ذلك فنحن نحرّضكم

---

(١) قد يكون المرسَل إليه أحد رجال الكنيسة الذي وجّه رسالة إلى غريغوريوس عرض له فيها ما يعانيه من شدائد، وقد أشار غريغوريوس في جوابه الى ما يعانيه هو أيضًا.

(٢) قد يكون تاريخ هذه الرسالة في المرحلة التي اشتدت فيها الحال بين غريغوريوس وهلاذيوس القيصريّ.

على ألاّ تنظروا إلى حالنا، بل إلى تعليم الإنجيل - ومن يستطيع أن يكون للغير عزاءً في آلامه، إذا كانت الآلام تستبدّ به؟ - حتّى تستقيم الأمور على حدّ ما قيل: «لي الانتقام، أنا أُجازي يقول الربّ[٣]» أما أنت فاعمل بما يليق بك، اجعل في الله رجاءَك، ولا يَصرفْكَ عن استقامتك وصلاحِك ما يُؤخذُ علينا، ولكن دع لله، الدّيّان العادل، الحلّ الملائم لهذه الأمور، وسِرْ في الطريق التي تخطّها لك الحكمة الالهيّة. في الحقيقة لم يتألّم يوسف من حسد إخوته، لأن شرّ ذويه كان له الطريق إلى الملك.

---

(٣) رو ١٢: ١٩.

الرسالة السابعة عشرة

إلى كهنة نيقوميدية[1]

عسى أن يوافيكم «أبو المراحم وإله كل تعزية[2]» بنعمته، هو الذي صنع كل شيء بحكمة للمنفعة العامّة، ويعزّيكم «مُجريًا فيكم ما حَسُنَ لديه»[3]، وأن تكون معكم نعمة ربنا يسوع المسيح وشركة الروح القدس[4]» فتكونوا لكم دواءً لكل ضيقة وشدّة، وسبيلاً إلى كل خير، لأجل كمال الكنيسة، وبنيان نفوسكم، والإفاضة في تمجيد اسمه تعالى[5].

بالنسبة إلينا نُقدم لمحبّتكم هذا الدفاع الذي يبرّر موقفنا: لم نتوانَ عن القيام بواجبنا الرّاعوي الذي أُلقي إلينا بالنسبة إليكم[6]، سواءٌ كان في الماضي أو في الحاضر، بعد وفاة الطوباوي پاتريسيوس. ولكن الأعمال الكثيرة التي تتراكم علينا في كنائسنا، والضعف الشّديد الذي يَعْتور

---

(١) هذه الرسالة موجّهة إلى كهنة نيقوميدية ومن خلالهم إلى الرعيّة كلها التي تتأهب لاختيار أسقف.

(٢) ٢ كو ١ : ٣.

(٣) عب ١٣ : ٢١.

(٤) ٢ كو ١٣ : ١٣.

(٥) مقدّمة احتفالية أشبه بمقدّمات بولس الرسول، وهي محشوّة بالآيات الكتابيّة، وتتلاءم والرسالة الراعويّة.

(٦) يشير غريغوريوس إلى المهمّة التي وكلها إليه مجمع القسطنطينيّة في السهر على الارثوذكسيّة في ولاية البنطس التي تُعد نيقوميدية قسمًا منها.

جسدنا – انه يشتدّ بازدياد عدد السنين – والإهمال الشديد الذي يُظهره صلاحكم بالنسبة إلينا: لم نتلقَّ منكم قطُّ كلمة أو رسالة تدعوننا فيها إليكم، ولم تبدُ منكم أيّ إشارة صداقة موجّهة إلى كنيستنا، فيما كان الطوباوي الأسقف أوفراسيوس قد جمع بإخلاص ما بينه وبين صغارتنا وبينكم بسلاسل – بالمحبّة. ولكن وإن لم يتحقّق في ما مضى واجب المحبّة، سواء كان من جهتنا بزيارة أو من جهتكم بإغفال دعوتنا، فاننا نسأل الله، ضامّين صلاتكم إلى رغبتنا، أن نتمكن في أقرب وقت من زيارتكم لكي يُنشّط بعضُنا بعضًا، ونظهر اهتمامنا بعضنا للبعض الآخر، بحسب ما يوحي به الرب، بحيث نجد سبيل التعويض عما سبق ممّا كان سبب مشقّة، والضمانة لمستقبل خالٍ من كل ضباب. وهكذا بعد تحرُّرنا من الخلاف الذي يفرّقنا ويُبعد فريقًا عن الكنيسة من هنا، وفريقًا آخر من هناك، تتفلّتون من أشراك إبليس وتهكّمه، هو الذي تقوم ارادته وعمله، بخلاف ارادة الله، على ان لا يخلص جميع الناس ويبلغوا إلى معرفة الحقّ[٧]. فتأمّلوا أيها الأخوة كم نالنا من المشقّة عندما بَلغَنا أن الحالة عندكم لم تتبدّل، وان الموقف الذي وقفه المنشقّون لا يزال على حاله[٨]. وكما أنّ الماء كثيرًا ما يفيض من مجراه على الضفّة المُتاخِمة، وينتشر ويمتدّ هنا وهناك، وأنه إذا لم يُصلَح مسربُ ذلك الماء يكون من الصعب ردّه إلى مجراه بعدما خدّ اندفاعُه الأرض، كذلك يكون اندفاع المنشقّين، فإذا فاض بدافع الخصومة والشجار، وانحرف عن الإيمان الصحيح والمستقيم يحفر له بالمثابرة أخدودًا يصعب معه الرجوع إلى النعمة الأولى. لهذا تحتاج الحال عندكم إلى مدبّر حكيم وقويّ يعرف كيف يعالج مثل هذه

(٧) طالع ١ تيم ٢ : ٤.

(٨) إشارة إلى ان مجمع ٣٨١ لم يقض على الخلافات القائمة بين الكنائس.

الانحرافات ويعيد هذه التيّارات الهوجاء إلى جمالها الأوَّل، فتعود حقول التقوى إلى نضجها يرويها جدول السلام.

فلا بُدّ لكم جميعًا والحالة هذه من غيرة شديدة وحميّة متّقدة حتى يختار الروح القدس راعيًا لا تتطلَّع عيناه إلاّ إلى أمور الله، ولا يلتفت نظره إلى أيّ شيء مما يستهوي أبناءَ هذه الحياة. لهذا، في رأيي، كانت شريعة اللاويّين تحرم اللاوي من الميراث الأرضيّ: حتى لا يَكون له نصيب، على حدّ ما كُتب، الاّ الله، ويُحافظ على هذا النَّصيب أبدًا، فلا تميل نفسه إلى أيّ شيء ماديّ. إذا كان هنالك غير مُبالين، أو كنا نحن كذلك فلا يضطربْ أحدٌ في سلوكه بسبب ذلك: ما يفعله البعض ممّا لا يليق لا يُتيح للآخرين ان يسلكوا سلوكًا غير لائق. عليكم انتم، بخلاف ذلك، أن تسلكوا سلوكًا يساعد الكنيسة على التطوُّر نحو الأفضل بعودة المشتّتين إلى اتّساق الجسد الواحد، وعودة الروح القدس إلى التوهُّج في جمهورٍ من يمجّدون الله بتقوى. لأجل ذلك أرى من الجدير بكم أن تتوجّهوا إلى شخص يريد صالح الكنيسة، بحيث يكون المُنتخَبُ قادرًا على إدارتها. أن يُطلب ما بين صفات الأسقف الأصل، والغنى، والجاه، ليس ذلك ما يطلبه الرَّسول[٩]. إذا كانت إحدى هذه الصّفات تُلازم طبيعيًّا من يتولَّون مناصب الإدارة، وتكون كالظلّ الذي يُرافق الحقيقة، فنحن لا نتأبّاها؛ ولكن إذا كان الأمرُ غيرَ ذلك فان تقديرنا يكون لما هو أغلى قيمةً وان لم ترافقه الصفات السابقة. النبي عاموس كان راعي ماعز، وبطرس صيّاد سمك، وكذلك أندراوس أخوه، وكذلك يوحنّا السامي القدر. بولس كان صانع خيام، ومتى عشّارًا، ولم يكن الباقون قناصل، ولا قُوَّادًا، ولا حكّامًا، أو أشخاصًا عُرفوا بالبلاغة أو

---

(٩) ١ تيم ٣: ١ – ٧.

الفلسفة، بل كانوا بؤساء، جهّالاً، ومن أصل وضيع. ومع ذلك «فقد ذاع صوتُهم في جميع الأرض، وكلامُهم إلى أقاصي المسكونة»[١٠]. قال الرسول: «انظروا أيها الإخوة إلى المدعوّين فيكم، فليس كثيرون حُكماء بحسب الجسد، ولا كثيرون أقوياءَ، ولا كثيرون شُرفاءَ، وانّما اختارَ اللّهُ ما هو جاهل»[١١]. قد يكون اليوم أيضًا في نظر الناس من الجهل والحقارة أن يفقد الإنسانُ رصيدهُ وأن يكون الفقر وضعة الأَصل في أساس بؤسه. ومن يدري، قد يكون هذا هو الذي تُفرغ عليه النعمةُ قرنَ الزّيتِ المقدّس، وإن كان دون العظماء والوجهاء قيمةً اجتماعيّة؟ ما كان الأفضل لمدينة رومة في البدء: أن تتّخذ لادارتها أحد الأشراف والنُّبلاء المتعجرفين من مجلس الشيوخ أو الصيّاد بطرس، الذي لم يكن له شيء من هذا العالم يجلب له الشهرة؟ ما كان مسكنه؟ من كان خدّامه؟ أيّ الأملاك كانت مداخيلُها في أساس ترَفهِ ورفاهيته؟ وهذا الغريب المحروم من السَّقف والمائدة كان أشدّ غنًى من الذين يملكون كل شيء، لانه بفقدانه كل شيء كان يملك اللّه بكامله. وكما أن سكّان ما بين النهرين، الذين كانوا جماعة بَذخ وغنى، اختاروا توما لقيادتهم، والكريتيّين تيطس، وسكّان أورشليم يعقوب، ونحن سكان كبادوكية قائد المئة الذي اعترف، في أثناء الآلام، بألوهة الربّ – يوم كان فيهم شرفاء كثيرون، وساسة خَيْل، ومتقدّمون في مجلس الشيوخ. وقد نجد في كل كنيسة ان العظماء عند اللّه قد أُوثروا على البهارج العالميّة. أرى انه يجب عليكم انتم أيضًا في الحالة الحاضرة أن تنظروا إلى هذه الأمثلة، وذلك إذا كنتم ترغبون في إحياء ما كان لكنيستكم من مقام قديم.

---

(١٠) مز ١٨: ٥؛ رو ١٠: ١٨.

(١١) ١ كو ٢١: ٢٦ – ٢٧.

أنتم أعرف الناس بتاريخكم: قبل ان تزدهر المدينةُ جارةُ مدينتكم كان كرسيّ الحكم عندكم[١٢]. ولم يكن بين المدن مدينة تفضُلُ مدينتكم؛ واليوم، وإن توارت زخرفة الأبنية[١٣]، لا تزال مدينتكم بعدد سكّانها بمستوى ما كانت عليه من أبّهة وروعة. فيجدر بكم والحالة هذه أن لا تكون عواطفكم دون مستوى ما لديكم من قِيَم، بل أن يرتفع اهتمامكم للحالة الحاضرة إلى مستوى شهرة المدينة، حتى تجدوا، بمعونة الله، رئيسًا للشعب كَفِيًّا. انه لَمِن المُخجل، أيها الإخوة، وممّا لا معنى له، أن يقود قبطانٌ السفينة وهو لا يعرف فنَّ القيادة، فكيف بالأحرى يمكن الإنسان أن يقبض على سكّان الكنيسة وهو يجهل قيادة نفوس المبحرين معه إلى مرفأ الله. كم من كنيسة غرقت بأبنائها بسبب قصور رؤسائها! من يستطيع أن يُحصيَ النكبات التي نبصرها بعيوننا والتي ما كانت لتقع لو كان الرؤساء على شيء من الخبرة في القيادة! مثلٌ آخر: لا يُسلَّم الحديد إلى أناس تَنقصهم الخُبرة في صُنع الأدَوات، بل إلى أولئك الذين يعرفون فنّ الحدادة. يجب اذن تسليم النفوس أيضًا إلى من يعرف تليينها بحرارة الروح القدس، وبأدوات تشكيل روحيّة يستطيع أن يصنع من كل واحد منكم «إناءً مختارًا» يَحْسُن استعماله. إلى هذا التبصُّر بالأمور يدعونا الرسول، في رسالته إلى تيموثاوس، فيسنّ قوانين لجميع مستمعيه قائلاً إنَّ الأسقف يجب ان يكون بغير مُشْتَكى. هل تنحصرُ رغبةُ الرُّسول في ان يكون هكذا المنتدبُ للكهنوت دون سواه؟ أيّ فائدة لأن يكون الخير محصورًا في واحد؟ ولكنّ الرسول يعلم أن الأدنى يأتمُّ بالأعلى، وأن فضائل الرئيس تصبح فضائل جميع من يتبعونه، لأن المعلِّم يشكّل التلميذَ

(١٢) كانت نيقوميدية في عهد ديوكلسيانس عاصمة الامبراطوريّة، وقد ارتفعت فيها المباني الجميلة التي نافست بها رومة إلى ان كان قسطنطين والقسطنطينيّة.

(١٣) لقد دمّر الزلزال نيقوميدية في ٢٤ أب سنة ٣٥٨.

على شكله. لا يمكن ان يكون من نشأ على فنّ الحدادة أن يمارس فنّ الحائك، ومن تدرّب على الحياكة أن يكون خطيبًا أو مهندسًا، ولكن ما يراه التلميذ في معلّمه ينتقل إليه. لهذا قيل: «كل تلميذ إذا اكتملَ يكون مثلَ معلمه[١٤]». فماذا إذن أيها الإخوة؟ أمن الممكن أن يصير متواضعًا، ليّنَ الجانب، موزونًا، مترفِّعًا عن المكسب، حكيمًا في الأمور الإلهيّة، أليفًا للفضيلة والدّعة في سلوكه، مَن لا يرى هذه الصّفات عند مُعلِّمه؟ لا، لا أدري كيف يصير روحانيًّا مَن كان تلميذًا لابن دُنيا: كيف لا يكون على صورته مَن تشكّل بشكله.

أيّ فائدة للعِطاش في عظمة البئر إذا خلت من الماء؟ حتى إذا ارتفع مدخلها على أعمدة متّسِقة الهندسة، في تنوّع أشكالها[١٥]، فماذا يطلب العطشان ليروي عطشه: أن يُشاهد حجارة حسنة التّنسيق، أو أن يجد ماءً، حتى إذا كان جاريًا في مجرى خشبيّ ينسربُ منه سائِل صالح للشرب؟ هكذا، أيها الإخوة، من نظر بعين الاعتبار إلى التقوى لم يهتمّ بالظواهر الخارجيّة. حتى إذا كان أحدٌ فخورًا بأصدقائه، ومزهوًّا بقائمة مراتبه، وكان دَخْلُه السنويُّ ضخمًا، وكان يستعلي بسلالته، ويغرق من جميع النواحي في دُخانِ عجرفته، فيجب اهمالُ مثلِ هذا كما تُهمل البئر الجافّة، إذ انه لا يملك الصّفات الجوهريّة في الحياة. يجب بالأحرى السعي، ما أمكن ذلك، وعلى ضوء مصباح الروح القدس، إلى اختيار من هو «جنّةٌ مُقفلة وينبوع مُقفَل[١٦]». على حدّ قول الكتاب. وهكذا إذ تصبح لنا أطايبُ الجنّة، بالرسامة، في مُتناوَلنا، يتمكّن ماء الينبوع من

---

(١٤) لو ٦: ٤٠.

(١٥) كان بعض الآبار قديمًا أشبه ببناءٍ مع أعمدة وأروقة.

(١٦) أع ٤: ١٢.

الجري، وتصبح النعمة التي فيه الملك المشترك للكنيسة كلها. فَلْيمنحكم الربُّ أن تجدوا سريعًا في ما بينكم مثل هذا الرّجل فيكون «إناءً مختارًا»(١٧)، «عمود الحقّ وقاعدته»(١٨). ثقتنا في الربّ أن الأمور ستجري هكذا إذا آجتمعتم على توخّي الخير العام، مقدّمين ارادة سيّدنا يسوع المسيح على إرادتكم الخاصّة، «ما هو صالح، وما يرضيهِ، وما هو كامل»(١٩)، حتى يتسنّى لكم من النجاح ما يكون لنا سبب فخار، ولكم علّة ابتهاج، ولإله الجميع داعي تمجيد، هو الذي ينبغي له المجد إلى الأبد!

(١٧) أع ٩: ١٥.
(١٨) ١ تيم ٣: ١٥.
(١٩) رو ١٢: ٢.

الرسالة الثامنة عشرة

إلى أوترايوس أسقف مَليتينس(١)

كم تكون جميلةً صوَرُ الأشياءِ الجميلة عندما تحتفظ في ذاتها، وبأمانة، بميزة جمالها الأوَّل وشكله! في عذوبة رسالتك وجدتُ صورةً حقيقيّة لنفسك الطيّبة التي تمتاز بالجودة، وقد غمرتَنا بالعسل «من فيض قلبك» على حدّ قول الإنجيل. ولهذا كنتُ أتصوّر أني أراك وجهًا لوجه، وأتمتّع بسعادة وجودك أمام عينيّ من خلال عواطف الصّداقة، التي تنبض بها رسالتُك. عدّة مرّات أعدتُ قراءتها من أوّلها إلى آخرها لما وجدتُ فيها من متعة، وكنتُ كل مرّة أَجدُني أشدّ شغفًا بقِراءتها، ولم يكن لي ارتواء من هذا الشراب، لأن الارتواء لا يمكنه ان يقضي على متعة الأشياء التي هي بطبيعتها جميلة وثمينة. إمكان التطلُّع الدائم إلى الشمس لا يُضعف الرغبة فيها، والتمتّع الدائم بالصحّة لا يحدّ الرغبة فيها؛ وفي ما هو من الإفادة من صلاحك، الذي عايَنّاه مرارًا شخصيًّا – والآن بالرسالة– فنحن على اقتناع انّ ذلك لا يروي عطش رغبتنا. وما يعاينه من كانوا، لسببٍ من الأسباب، على عطش شديد، نعاينه نحن، فبقدر ما نجمع من خيرك نزداد عطشا إليه. إذا كنت لا تحمل كلامنا على محمل التزلّف والممالقة – إنك لن تحملها على هذا المحمل، لأنك فوق ما أنت

---

(١) هو الذي وُجّهت إليه الرسالة العاشرة. أما هذه فكُتبت في سبسطية ويرى البعض انها سابقة للرسالة العاشرة.

عليه، تمتاز بغيرتك علينا وتضحيتك في سبيلنا – فانك لن تتردّد في تصديق ما أقول: انّ نعمة رسالتك كانت لعينيَّ دواءً ناجعًا، أوقف جريان دمعهما، وإنّا لَننتظر طبّ صلواتك ليعضد نفسنا المتداعية تحت وطأة الشدائد التي تعتورها، وينقذها تمامًا من علّتها الشديدة. اننا في حالٍ الآنَ نعمل على تغطية خبرها عن أُذن من يودّنا، وإخفاءِ حقيقتها بالصّمت عنها حتى لا نجرّ أصدقاءَنا الذين يُخلصون لنا المودّة إلى مشاركتنا في مِحَنِنا الخاصّة. فعندما يعود إلى ذاكرتنا أنّنا تركنا أحبّ الناس إلينا لنقع في غمرة النّزاعات، وما أُرْغِمنا على تركهِ هو: أبناء أُهِّلنا لأن نلدهم لله في الآلام الروحيّة، وزوجة[٢] قُرِنّا بها بحسب الشريعة وأظهرت لنا حبّها مُتحمِّلة في ذلك المسؤوليّة في أيّام المحنة، وبيت حافلٌ باللطف، وأشقّاء، وأهل، وأحبّاء، وأُلاَّف، وأصدقاء، وعيلة، ومائدة، وقلاّية، وفراش قشّ، ومَقْعد، ومِسْح، وزاوية، وصلاة، ودموع[٣]... ما أعذب هذه الذكريات، ما أحبّها لفرط تعوُّديها، ولستُ بحاجةٍ إلى أن أكتب لك عنها، لأنك على علمٍ بكل شيءٍ! وبدلاً من ذلك – حتى لا يبدو أني أقول أمرًا لا يُطاق – تأمّل كم هنالك من اختلاف في الأجواء! واني، وإن بلغتُ آخرَ شوطٍ من حياتي، أعود إلى مدرسة الحياة: لا بُدَّ لي من معرفة التنوّع السائد في الأخلاق. وقد بدأتُ متأخّرًا أن أتعلّم الخداع وفن المخاتلة، وإنّي لأخجل من جهلي وعجزي في هذا الفن، بخلاف ما عليه خصومي في حذق هذه الحكمة، ومقدرتهم على حفظ ما تعلّموه، وعلى اختلاق ما لم يتعلّموه. انهم يشنّون الحربَ عن قرب،

---

(٢) الأبناء هم المُؤْمنون، والزوجة هي كنيسة نيصّص التي أُقيم عليها؛ وفي الكلام إشارة إلى الحياة الرهبانيّة والنسكيّة.

(٣) في العبارة اكتفاء، فقد بُدئت، ولم تتمّ.

ويطلقون السهام عن بُعد؛ يُجمِّعون الكتائب للحرب، وينصبون الكمائن في تكتّم؛ يتغلّبون بتعاونهم، ويقيمون لهم حصنًا حصينًا من مناصريهم. إله المال قدير لديهم، وليس هنالك من يتغلّب عليه: انه في المقدّمة يعمل بيمينه وشماله، تارةً يفرض جزيةً على من خضعوا له، وتارةً يقضي على من كانوا في مُتناوَلِ يدِه.

إذا شئتَ ان تعرف ما هو من شأنِ حياتنا الخاصّة، وجدتَ أمورًا أخرى مُشابهة: كوخًا صغيرًا خانقًا، يستبدّ فيه البردُ، والظُّلمة، والضيق، وجميع الحسنات التي من هذا النوع، وحياةً يُراقبها الجميع، يراقبون الصوت، والنظر، والمَلْبس، وحركة اليد، وانتقال الرِّجل. يَراقَبُ كل شيء في غير حياء – هل التنفُّس غير كافٍ، وهل يجري بطريقةٍ منتظمة؛ هل يرافقُ النَّفَسَ أنينٌ، هل الثوب الرهبانيّ منضبط تحت الزنّار، أو هل الزّنار منزوع، هل رداؤُنا المزدوج لا يسقط بدون تجعُّد على الجانبين، أو هل شدَدْنا أحد أطرافه على الكتفين... جميع هذه الأمور، حتى إذا لم تكن، تصبحُ حجّةً بيد من يحاربوننا، وبهذا الهدف يجتمعون لمحاربتنا، سواء كانوا أفرادًا أو مجتمعاتٍ أو أديارًا.

وإذ كان من غير المَمكن أن نُحسنَ العملَ أو نسيئه في كل شيء – وكثيرًا ما تكون الحياة عند الجميع مزيجًا من أضداد – فإذا كان ما يأتي منك، بنعمة الله، يُساندنا دائمًا، فانّنا سنتحمَّل هذه المتاعب الكثيرة آملين في أن يكون لنا أبدًا نصيبٌ في مودّتك وعطفك. فلا تنقطع عن إمدادنا بهذه المنّة: انّك تخفّف بها عِبْئنا، وتَكسبُ بها أجرَ الوصايا على أوسع نطاق.

الرسالة التاسعة عشرة

إلى شخص اسمهُ يوحنّا في أمور مختلفة تتعلّقُ بنهج الحيَاة وسجايا شقيقته الَشهيرة ماكرينا

إنّي على علم بأنّ بعض الرَّسَّامين يعملون على تكريم أصدقائهم، وهم من أقبح الناس منظرًا، تكريمًا زائفًا يُخرجون فيه صورتهم على غير ما يرون. إنهم في نقلهم للصورة يُصحّحون الطبيعة فَيُخفون على اللوحة قبح المنظر بالألوان الزّاهية، ويُبَدّلون القسمات والأَسارير، بحيث يصبح الصَّديق في صورته المزيَّفة غير الصديق الحقيقيّ. هؤلاء الأَصدقاء لم يُفيدوا خيرًا من شعرٍ أشقر كثّ، منعقفٍ على الجبين ولامعٍ حواليه، وشفاهٍ متألّقة، وخدودٍ متورّدة، وحواجب مقوّسة، وعيونٍ متلألئة، وأجفان مكحَّلة، وجبهة مشرقة فوق الأجفان، وكل ما هو من هذا القبيل ممّا يُسهم في الإخراج الجماليّ. فهذا الواقف أمام الرسّام ليرسمه إذا لم ينل ذلك كلّه من الطبيعة، كانت محاولته خسرانًا وزيفًا: الرسم أظهر الوجه الملوّن جميلاً وزاهيًا، ولكن وجه الصديق المختلف عن الرسم يفضح الزَّيف والمغالاة في الخدمة. يبدو لي أن الامر هو هو إذا راح أحدهم يُطرئ صديقًا ويغمره بالمدائح المُفرطة، ويصفهُ لا على ما هو بل على ما ينبغي أن يكون الإنسان الكامل: انه بكلامه صوّر حياةً مستقيمة، ولكنه بمدائحهِ الزَّائدة انتقد صديقه أكثر ممّا مدحه، لأنّ هذا الصديق يختلف في حياته عمّا ورد في الكلام ويَظْهر على غير ما قُدِّر. ما معنى كلامي

هذا؟ وجدتُ في رسالتك نوعًا من تمثالٍ منحوت بعناية فائقة؛ كان يَحْمل اسمي إذ إنّ الرسالة موجّهة إليَّ؛ ولكن بعدما استعرضتُ حياتي بدقّة شديدة، كما في مرآة وجدتُني مختلفًا كل الاختلاف عن الوصف الذي وصفتَني به بكلامك، وأدركتُ انك من جهتك كنتَ تُظهِر بذلك أيضًا محبّتُك للخير. فبقدر ما كنتَ تراني كذلك أحببتني إلى هذا الحد، وأظهرتَ بكل وضوح استقامة طبيعتك، إذ لم يكن لمحبتك من داع سوى الفضيلة، وأنني كنت على حظّ من شيء منها، فقد جَعَلْتني في عداد أصدقائك الحقيقيّين. وقد رأيتُ من الأفضل أن أعرف صفاتي بنفسي من أن تضلّلني شهاداتُ غيري، حتى ولو كان هؤلاء الغير من أصدق الناس. هذا ما يدعو إليه أيضًا المثَل القائل: يجب على من يعتمدون على شهادة الغير لمعرفة أنفسهم أن يعتمدوا على ذواتهم لمعرفة حقيقة ما هم عليه.

حسبُنا الكلام في هذا الموضوع، حتى لا أبدو، وأنا أعترض على المديح، متهكّمًا في شأن الاطراءات. وبما أنك حرّضتَني على كتابة بعض الشيء في الموضوع الذي ناقشناه، حتى يكون للجماعة من ذلك فائدة، فاعلم الآن أنه أُتيح لنا من الفراغ ما يشبه تقريبًا الفراغ الذي تحدّث عنه أحد الأنبياء[1] فقال: هرب إنسانٌ من الأسد ونجا من أنيابه ومخالبه، فوقع على غفلة منه، ومن حيثُ كان يأمل النجاة، أمام دبٍّ كاشرٍ عن أنيابه؛ وعندما نجا من هذا الخطر بعد صراع عنيف، واجهَ، وهو مستلقٍ إلى جنب حائط، لدغةَ حيَّة. تلك كانت سلسلةُ المتاعب التي حلّت بنا، وتعاقبُ الأحداث المؤلمة التي كانت التابعةُ منها تُبدي بشدّتها ما سبق منها ضئيلاً. وإذ كان من غير المزعج أن نبادر مَن نُحبّ بقصص مؤلمة، سأعرض لك بإيجاز هذه القصّة.

---

(١) عا ٥:١٩.

كانت لنا أختٌ[٢]، موقعها بالنسبة إلينا موقع معلِّمةِ حياةٍ، وموقعُ أُمّ بعد الأُمّ. كان لها أمام الله موقفُ إيمان وثقة لا حدّ لهما، وكان لنا هذا الموقف «بُرجًا حصينًا»[٣]، و«تُرسًا واقيةً[٤]»، و«مدينةً محصَّنةً[٥]»، على حد قول الكتاب، وكلِ نوع من أنواع الضمان والأمان، كانت تقيم في أعماق البُنطس، مبتعدةً عن حياة الناس، وحواليها جوقة كبيرة من عذارى ولدتهنَّ بالآلام الروحيّة، وراحت تبذل وسعها في قيادتهنَّ نحو الكمال، فكانت حياتها حياة الملائكة في جسم بشريّ. لم يكن فرقٌ عندها بين الليل والنهار، بل كان الليل حافلاً بأعمال النُّور، وكان النهار حافلاً بهدوء الصّفاء. كان مسكنها في حركةِ عملٍ دائمة، يتعالى فيه نشيدُ المزامير ليلَ نهارَ. حقيقة يكاد لا يصدّقها حتى مَن يراها: جسمٌ لا يطلبُ ما لَهُ، وجوفٌ كما يُظنُّ أنه سيكون يوم القيامة، محرَّرٌ من جميع الميول، دموعٌ تنسكبُ بقدر الماء الذي يُشرب، فمٌ يلهج بالشريعة، أُذنٌ صاغية إلى أمور الله، يدٌ لا تكفّ عن الحركة في العمل بالوصايا. كيف يمكن التعبير عن مشهد يتعصّى على الكلام وصفُهُ؟

في طريقي من عندكم توقّفتُ في كبادوكية فبلغني خبرٌ عنها أقلقني. المسافة بيننا مسيرةُ عشرة أيّام، وما إن اجتزتُها على ما أمكنني من السُّرعة، حتى كنتُ في البنطس، فرأيتُها ورأَتْني. ولكن كما يكون المسافر في الظهيرة، وقد جفّفت جسدَهُ الشمس، فينطلق نحو ينبوع الماء، وقبل وصوله إلى الماء، وقبل ان يتبلّل لسانهُ، يجد أن الماء انقلب إلى تراب

---

(٢) هي ماكرينا التي نقلتُ سيرة حياتها إلى اللغة العربيّة.

(٣) مز ٦ : ٤.

(٤) مز ٥ : ١٣.

(٥) مز ٣٠ : ٢٢؛ ٥٩ : ١١.

وأن الينبوع جفَّ في وجهه، كذلك كنتُ أنا، بعد تسع سنوات من الغربة عمّن كنت أُحبّها كأم، ومعلّمة، وكل خير، فقد غادرتُ المكان ولم أخْطَ بما كنتُ أصبو إليه، وعُدتُ أدراجي بعد يومين وبعدما قمتُ بدفنها. تلك كانت زيارتي لموطني بعدما رجعتُ من أنطاكية.

لم أكن بعد قد هضمتُ مصابي عندما نشر الغلاطيون المقيمون قرب كنيستي عدواهم وبثّوا في السرّ وفي عدّة أمكنة وباءَهم الذي لا يُقلعون عنه، اي هرطقاتهم، وأحدثوا حَدَثًا عظيمًا لم أستطع الخروج منه بعون الله إلا بعد جهدٍ شديد. وهنالك أمرٌ آخر. إيبورا مدينة واقعة على حدود البنطس؛ وقد ضممناها إلينا وإلى الايمان المستقيم منذ أمد بعيد؛ وعندما توفي أسقفها بعث إلينا سكانُها رسلاً يطلبون أن لا ندعها فريسة بين أَيدي أعداء يريدون تمزيقها. دموع، سجدات، زفرات، وأمور أخرى مشابهة كانت لنا في اصل النوائب الحاضرة. فبعدما كنّا في البنطس وبعد اهتمامنا بكنائسهم كما ينبغي، بمعونة الله، فاجأنا، في تلك الناحية أيضًا مبعوثون كثيرون من سيبسطية يطلبون استباقَ الهراطقة واتّقاء حملاتهم. ما حدث في هذا الموضوع يجدر به الصمت، والأنّات التي تفوق الوصف، والغمّ الدَّائم، والحزن الذي لا يُزيله الزَّمن. ان البلايا الأُخرى يتحمّلها البشر بسهولة انسياقًا والعادة، ولكنَّ بلايانا هنا تزداد مع الوقت باستنباط أُخرى أشدّ إيلامًا.

وهكذا، بعد الصلوات الطّقسيّة، دُعيتُ أنا وسائر الأساقفة لهذه الغاية، وجرى جمع الأصوات الانتخابيّة، فوقع عليّ الاختيار، وعلى غيرعلمٍ منّي، عَلِقْتُ بجناحيّ في الشَّرك؛ ومن ثَمَّ نزاعٌ، وقهرٌ، ودموع، ومُهاجماتٌ، ورقابة، وحراسة عسكريّة على رأسها مُستشار الوالي نفسه وهو يُنظّم حملةً علينا، محرّكًا سلطةَ الحاكم، ومتسلحًا بجميع الوسائل لكي يُهيمنَ علينا بجبروته إلى حدّ زجّنا في ويلات بابل! لقد ابتعدوا،

في ما يتعلق بالإيمان، عن جماعة الزمن القديم ابتعادًا شديدًا حتى تمكّنت منهم العِلَّة واستعصت على العلاج فراحوا يناهضون من يعملون على شفائهم من هذا الداء. وإلى ذلك فإذ كانوا جُهّالاً، وأكثر من برابرة لغةً، وغلاظ الصوت، ومتوحّشين في طريقة حياتهم، راحوا، في دهائهم، ينفثون الشرّ، كالوحوش المفترسة، حتى كان أرخميذس لا شيء بالنسبة إليهم، أو بالحري سيسيفُون وكَرْكيون وسكيرون[٦] أو آخرون ممّن نقلت إلينا الرّوايات أخبارهم. الباطل أقرب إليهم من الحقيقة، وهم أجرأ على الكذب، في وقاحتهم، مَن هواة الحقيقة في كلامهم. في نظرهم أن يكون الإنسان مُتَّهمًا بأقبح الجرائم هو داعي فخارٍ لدى الكثيرين. الكبرياء، والغضب، وفقدان الشعور، وفظاظة ما ذكرته من اعمال، كل ذلك يُعَدّ لديهم كياسة وحسن سيرة.

هذه الأحداثُ التي لم نذكر لك منها إلاّ القليل، والتي تجنّبنا فيها التفصيل والإطالة، قد أوردناها لكي لا تتّهمنا بالكسل والبخل في الكتابة. ولكن الذي يكون في مثل هذه الحال كيف يمكنه ان يتلفّظ باسمه في سهولة؟ ومع ذلك فاذا رغبتَ ان نصبّ اهتمامنا يومًا على ذلك فآسْبِقنا أنت، ثم هَبْنا من الوقت ما يسمح بالكتابة، إذا لم يكن لوطس مدينتك أعذب لديك من محبّتنا[٧]. وإذا كانت العوائق تحول دون ذلك - أعني مهامّ كنيستك - فيكفيك أن تشترك في نضالنا بالصلاة حتى يكشف الله عنا بعض هذه الغُمّة، حتى إذا تيسّر لنا، بعون الله، بعضُ الفراغ قمنا بما يجب علينا وما يجعل في عملنا فائدة للمؤمنين.

---

(٦) سيسيفون ملك كورنثس اشتهر بدهائه؛ وأمّا كركيون وسكيرون فلِصّان قضى عليهما ثيسيوس.

(٧) اللوطس الذي كان يأكله رفاق أوذيسفس عند آكلي اللوطس أَنساهم وطنهم (أوذيسّة ٩ : ٩٤ - ٩٥).

الرسالة العشرون

إلى الأديب أذلفيوس[1]

من أُوانوتا المقدسة[2] – ما لم يكن في كلامي شتيمة وقد لجأتُ إلى لغة البلد للدلالة عليها[3] – أُملي لك هذه الرسالة. أقول اني أسأت إلى هذا المكان لأن تسميته خالية من كل رونق، وأن روعتَهُ لا تدل عليها هذه التَّسمية الغَلاطيّة؛ فلا بُدّ من مشاهدته للوقوف على جماله السّاحر. أنا الذي رأى أمورًا كثيرة وأماكن كثيرة، الذي اطّلع على أشياء كثيرة من خلال الأوصاف التي تركها الأقدمون، أرى أن لا قيمة لما شاهدت ولما ترامى إلى سمعي إذا قورن بجمال هذا المكان. أين منه هَليكون الشَّهير، وجُزر السُّعداء وسهل سيكيونيون[4]، ونهر فينيون الذي انصبّت عليه الأوصاف الشعريّة، والذي في فيضه يتدفّق على ضفّتيه غزيرًا

---

(١) هو أذْلْفيوس الرسالة ١١ نفسُه، الذي أصبح يعد سنة ٣٩٢ قنصل غلاطية، ولم يكن بعدُ قد احتل هذا المركز عندما وجّه إليه غريغوريوس هذه الرسالة ووصف له فيها مقرّه الريفيّ الذي زاره غريغوريوس في غياب صاحبه.

(٢) هي إيڤانوس الحديثة الواقعة على بُعد مرحلتين إلى الجنوب الشرقي من نيصص؛ كانت قاعدة من قواعد الوثنيّة في كبادوكية وفيها تمثال شهير لزفس، وكانت تعرف باسم فينازا.

(٣) في هذا إشارة إلى أن لغة غلاطية لا تزال شائعة في تلك الناحية.

(٤) هليكون جبل في اليونان اشتهر بنُصُب أقيم لزفس، وبخصب أرضه؛ وجزر السعداء في آخر الأرض هي مسكن خلائق الجنس الرابع أنصاف الآلهة والناس الذين امتنعوا عن الشرّ، وسيكيونيون مدينة قرب كورنثس اشتهرت بسهلها الخصب.

ويُخْصِب سهول ثتّالية الشهيرة. أيّ مشهد من هذه المشاهد الجميلة التي ذكرناها لم تحوهِ أوانوتا؟ إذا طلبنا سحر المكان الطبيعيّ وجدنا انه ليس بحاجة إلى زخرفة الفنّ؛ وإذا توقّفنا عند الإضافات التي وفّرها الفنّ وجدنا أنّها في روعتها وكثرتها تتغلّب على ما قدّمته الطّبيعة. الحسنات التي مهرت الطّبيعةُ بها هذا المكان وزانت بها جوانبه هي التالية: في الأسفل النهر هَالِس يزين المكان بضفافه الشديدة الانحدار، ويتألّق كشريط من ذهب ممتدٍّ على رداء أرجوانيّ طويل، ينسجه الطَّمْيُ الأحمر الذي يصبغ مياهه. في الأعلى جبلٌ ضخم يغطّيه الشجر، ويمتدّ حيالَ حَرفٍ جبليّ طويل عامر بشجر السنديان. مشهد حريٌّ بأن يتناولَهُ قلم شاعر كهوميرس بالوصف، وعلى مجال أوسع من وصف نيريتوس الإيتاكيّ[٥] الذي قال فيه الشاعر «انه يُرى من بعيد وهو يُحرِّك أغصانه»[٦]. وإذا رافق النظرُ المُنحدَر انبسطت أمامه الأعشاب التي نبتت واتّصلت خضرتها بالحقول المزروعة في سفح الجبل؛ هنالك الكروم تمتدّ على التلال، والسُّهول والسُّيول في أسفل الجبل، وكأنها بجملتها رداءٌ أخضر يغطّي تلك الناحية كلّها. كان الموسم يضيف جمالاً إلى جمال في عرضه للأنظار مشهد العنب الغزير الذي يملأ الآفاق. والأعجب من ذلك أنك وأنت ترى الفواكه في الجوار غير ناضجة تراها هنا متعةً للنظر والحلق. ثم تتراءى لك المنازل الجميلة من بعيد متألّقة تألُّق نارِ منارةٍ كبيرة؛ إلى شمال المدخل بيتُ الصّلاة المهيَّأ للشُّهداء، وهو، وإن لم يُسقف بعد، يزدانُ بالمهابة والتألُّقِ أيضًا. وعلى خطّ مستقيم، أمام الطريق، أبنيةٌ أنيقة تتعاقب أقسامها في مرافقها المبتكرة التي تروق النَّفس والنّظر، وأبراجٌ مرتفعة،

---

(٥) هو كيزيل إرماك الحالي.

(٦) الأوذيسة ٩: ٢٢.

وباحاتٌ جُهّزت لحفلات الطّعام، بين صفوف عريضة وعالية من أشجار الدُّلب كانت تُكلّل المدخل قُدّام الأبواب. وحوالي المساكن حدائق الفياكيّين[٧]؛ وحاشَ لمفاتن أوانوتا أن تُقارَنَ بهذه! لم يشاهد هوميرس شجرة التّفّاح ذات الثّمار البرّاقة التي نراها هنا، والتي تستعيد لونَ أزهارها بما لشدّة لون ثمارها من أثر؛ ولم يُشاهِد الإجّاصَة الأشدّ بياضًا من العاج المصقول. وما القولُ عن تنوُّع الدُّرَّاقن وكثرته، هذا المزيج من أنواع متعدّدة؟ وكما أنّ أولئك الذين يمزجون عناصر مختلفة ويتفوّقون على مبتكرات الطّبيعة، فيرسمون من الحيوانات العجيبة ما نِصْفهُ تيس ونصفهُ الآخر أيّل، وما نِصْفُه حصان ونصفهُ الآخرَ إنسان أو ما أشبه ذلك من المُسوخ، كذلك بالنسبة إلى الثَّمر فان الطّبيعة بمؤازرة الفنّ قد قامت بالمزج، وفقًا للاسم والذوق، فكان هذا للَّوز، وهذا للنّواة، وهذا لِلُّبّ. وإلى ذلك فانّ وفرةَ كل نوع تطغى على جمال المنظر؛ ولكنّ تنسيق الأشجار وما يتبعه من مشهد مُنسجم القسَمات – هو في الحقيقة تُحفة رسّام أكثر مما هو عمل بُستانيّ، تزاوجت فيه الطبيعة ورغبات المنسّقين – أظنّ انه من المستحيل التعبير عنه بالألفاظ تعبيرًا ملائمًا. الممرّ تحت العرائش، وظلّ العناقيد الخفيف، والأسياج المبتكرة من هنا وهناك، حيثُ تتشابك أغصان الورد وسروع الدّوالي كأسوار تحول دون الدخول من الجوانب، وبركة الماء في خاتمة هذه النُّزهة، والأسماك التي تُربّى فيها... من يستطيع ان يصف ذلك كله بالألفاظ والعبارات؟ في أثناء هذا الوقت كلّه كان مديرو أعمال سيادتك يُسارعون في الاهتمام بنا وعرض ما يقومون به من أعمال في خدمتك، وكأنّهم يطلبون في مَرضاتنا مرضاتَك. ههنا شابّ قام بأمور بهلوانيّة عجيبة، وعرض علينا مشهدًا قلّما يؤلفُ في

(٧) الفياكيّون شعبٌ أسطوريّ زاره أوليس عندما أُلقي في البحر والتقطتهُ نوسيسكا ابنة الملك ألكينوس؛ وقد عاقب زفس الفياكيّين فطوّق مدينتهم بجبل.

الطبيعة، فقد انحدر إلى قعر البِركة وأمسك من الأسماك ما راقه منها، وهي لا تهرب منه، وكأنّها كلاب صغيرة أليفة تنقاد ليد فتى الفنّ هذا. وقد قادونا بعد ذلك إلى أحد المنازل للاستراحة: المدخل يدلُّ على انه منزل، ولكن بعدما اجتزنا المدخل، وجدنا أنفسنا، لا في منزل، بل في رواقٍ عظيم مُتأهِّبٍ لاستقبالنا. كان هذا الرواق العالي يُنيف من عَليائه على حوض ماءٍ عميق، وأساسه المثلّث الزّوايا الذي يقوم عليه غارق في المياه، وكأنه مدخل إلى مُتَع الداخل. أمامنا دار عالية السقف تحتلّ قمّة المُثلّث، تَدخلها الشمس من جميع جهاتها، وتزين جدرانها رسومٌ مختلفة، وقد أخذت بانتباهنا كل مأخذ إلى حدّ أننا كدنا، في هذا المكان، ننسى كل ما سبق لنا ذكرهُ! جذبَتْنا الدارُ إليها، وإذا الرواق أيضًا فوق الحوض في مشهد فريد الروعة! كانت الأسماك الجميلة تصعد من الأعماق إلى سطح الماء، وكأنّها تريدُ أن تُلاعبنا بلطف، ثم تقفز كالعصافير في الفضاء. كانت تظهر نصفَ ظهور وتطفرُ في الهواء، ثم تعود إلى الغوص في الأعماق. جماعة أُخرى من الأسماك كانت تظهر متلاحقة في صفوفٍ منتظمة، وتقدّم للغريب مشهدًا عجيبًا؛ وفي جانب آخر رَتْلٌ من الأسماك تتهافت، جماعاتٍ جماعاتٍ، على قطعة خبزٍ، متزاحماتٍ ومتنافساتٍ، تثب الواحدة منها، وتتوارى أُخرى في الماء. حتى هذا المشهد أنسانَتْهُ العناقيد التي قُدّمت لنا في سلالٍ وقُفَفٍ، إلى جانب الفواكه الأخرى المتنوّعة والرّائعة، ونظام الغداء، والأصناف المختلفة، والتوابل والحَلاوى، والأنخاب الودّيّة، والكؤوس.

بعدما نِلْنا من الغذاء شِبْعَنا، وقد كاد النُّعاس يقوى عليّ، استقدمتُ الكاتب وأمليتُ عليه هذه الرسالة إلى بلاغتك وكأنني في حُلم؛ ولكن لا بـمِداد وقرطاس بل بصوتي ولساني أودّ لو أتمكّن من وصف كل روائعك وصفًا كاملاً، لأجلك ولأجل كل من يُحبّك.

الرسالة الحادية والعشرون

إلى اقلاڤيوس[1]

هنالك طريقة لقنص الحمام هي التّالية: عندما يقبض الذين يتعاطون هذه المهنة على حمامة، يعملون على تدجينها، وترويضها على مشاركتهم في الطعام، ثم يطْلون ريشها بالطيب ويطلقونها لكي تختلط برفوف الحمام، فتدجّنها، بعَرف طيبها، لمن أطلقوها، لأنها تتبع صاحبة العَرْف الطيّب، وتقيم معها.

ماذا أريد بهذه المقدّمة؟ أريد أني بعد ما طليتُ جناحَيْ نفس باسيليوس، الذي كان اسمهُ قبلاً ذيوجينس[2]، بطيبٍ إلهيّ، أرسلتُه إلى سيادتك لكي تطير معه وترافقه إلى العشّ الذي أقامه بالقرب منّا[3]؛ وإذا قُيّض لي أن أتمكّن، وأنا على قيد الحياة، من أن أرى سيادتك منتقلاً إلى الحياة المُثلى، كنتُ من أعظم الشاكرين لله نعمته.

---

(١) هو غير افلافيوس الرسالة السادسة. انه علمانيّ يدعوه غريغوريوس إلى الحياة الرهبانيّة، وقد أصبح في ما بعد كاهنًا وأسقفًا في عهد ثيوذوسيوس الثاني.

(٢) كانت العادة ان يتّخذ الـمُقْدم على الحياة الرهبانيّة وعلى المعموديّة اسمًا جديدًا.

(٣) يبدو ان باسيليوس هذا هو مؤسّس دير نيصّص.

الرسالة الثانية والعشرون

إلى الأساقفة(١)

ثلاثةَ أيّامٍ فقط لبث النبيُّ في جوف الوحش البحريّ، ومع ذلك فقد خارت عزيمة يونان! وأنا هنا منذ زمنٍ طويل ما بين النّينويّين الكفَرة، سجين في احشاء الوحش، ولم يُتح لي بعد أن أُقاءَ من هذا البُلعوم الواسع(٢). صلوا إذن واسألوا الربّ أن تحلّ نعمتُهُ فيصدر الأمرُ الذي يُطلقني من هذا السّجن الضّيق فأعود إلى خيمتي وأستريح في ظلّها(٣).

---

(١) يبدو أن هذه الرسالة كتبها غريغوريوس عندما كان في سيبسطية، ووجّهها إلى الأساقفة المجتمعين لاختيار أسقف لهذه المدينة، يسمح له بالعودة إلى كنيسة نيصّص.

(٢) يرى بعضهم ان إقامة غريغوريوس في سيبسطية دامت نحو ثلاثة أشهر.

(٣) يو ٤ : ٥.

الرسالة الثالثة والعشرون

(بلا عنوان)

اني اختصر في الكلام لكي أُجنّبك التّعب. تذكّر واجباتك وكل شيء ماضٍ في الطريق الصحيحة مع فيذيمسُ. لا بُدّ من السّرعة في الشكران. إلى هنا يبلغ تحريضنا.

الرسالة الرّابعة والعشرون

إلى هيراكليانس المارِق

كلمةُ الإيمانِ الصّحيح، عند من يتقبَّلون كتُبَ الوحي الإلهيّ بروحٍ مستقيم، تستمدُّ قُوّتها من بساطتها، وهي ليست بحاجة إلى حذقٍ أو إلى أيّ مهارةٍ للتعبير عن حقيقتها، كما أنها تستمدّ وضوحها من التقليد الأوّل الذي بلَغَنا من كلام الربّ عندما نقل إلينا سرّ الخلاص بغسلِ التّجديد، وقد قال: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به[1]». عندما ميّز ما بين العُنصرين القائمَينِ في طريقة الكيان المسيحيّ – العنصر الأخلاقي، ودقّة العقائد – أقام على أساسٍ متين العقيدة الخلاصيّة في تقليد المعموديّة، وأمر أن تسير حياتنا على حفظ وصاياه. أما القسم المتعلّق بالوصايا، وهو أقلّ أذًى للنفس، فلم يُهاجمهُ إبليس؛ ولكنه توجّه بكل شرّه إلى الناحية الأهمّ لكي يضلّل نفوس الكثيرين مظهرًا لهم أنْ لا فائدة في العمل بالوصايا بغياب الإيمان، وهكذا تكون سيرتهم الصالحة غير مفيدة لانجرافهم في الضلال.

لهذا ننصح من يهمّهم أمرُ خلاصهم أن لا يبتعدوا عن بساطة كلمات الإيمان الأولى، بل ان يتقبّلوا في نفسهم الآب والابن والروح القُدس، لا أقنومًا واحدًا بثلاثة أسماء. لا يمكن القول بأنّ الآب أب من ذاته،

---

(١) متى ٢٨: ١٩ – ٢٠.

لأنّ الابن لا يمكنه ان يتّخذ له التسمية التي للآب، ولا أنّ الروح يمكنه ان يتّخذ حقيقة هذا أو ذاك؛ وهكذا فلكلّ واحد من الأقانيم الثلاثة اسمه الخاص وان كان الجوهر واحدًا. عندما يكون الكلام عن الآب يعني الكلام عن علّة كل شيء؛ وعندما نعرف الابن نعرف القدرة التي تتجلّى انطلاقًا من العلّة الأولى التي هي في اصل وجود الكون؛ وعندما نعرف الروح القُدس نعرف القدرة التي تستطيع أن تتمّم ما صدر عن الآب بالابن في الخليقة[٢].

تمتاز الأقانيم الواحد عن الآخر بما ذكرناه، أقنوم الآب، وأقنوم الابن، وأقنوم الروح القدس؛ أما الجوهر في الثالوث – وهو لا يمكن التعبير عنه باللفظ ولا تصوّره بالعقل – فهو واحد: وذلك ما لا يمكن إدراكه، ولا تصوُّره، ولا الإحاطة به؛ انه واحدٌ لكلّ من الأقانيم في الثالوث الذي نؤمن به. مَن يُسألْ عما هو الآب جوهريًّا يعترفْ بصدق أن الأمر فوق المعرفة؛ ومَن يُسأل السؤال نفسه في شأن الابن الوحيد يُقرّ بأنه من المستحيل ان تحيط الألفاظ بِجوهره، لأن «مَوْلده من يصفه»[٣]؟ كذلك في شأن الروح القدُس، فانَ كلام الربّ يبيّن استحالة معرفته، وذلك عندما قال: «تسمع صوته ولكنك لا تدري من أين يأتي ولا إلى أين يذهب[٤]».

فإذ كنّا لا نجد أيّ فرق في لامفهوميّة الأقانيم الثلاثة – إذ لم يكن الواحد أقلّ مفهوميّة، والثاني أكثر مفهوميّة، ولكنّ قدر اللامفهوميّة واحد في الثالوث – نقول من ثمَّ، انسياقًا مع تصوُّر اللاإِدراكيّة واللامفهوميّة،

(٢) يردّ غريغوريوس في هذه الفقرة على أتّباع السابّليانيّة: هنالك أقانيم ثلاثة يمتاز الواحد منها عن الآخر، ولكل أقنوم عمل خاص في تدبير الخَلْق.

(٣) أش ٥٣: ٨؛ أع ٨: ٣٣.

(٤) يو ٣: ٨.

انه لا يوجد في الثالوث أيّ فرق جوهريّ ما عدا ما فيه من رتبة وأقانيم؛ أمّا الرُّتبة فقد نقلها إلينا الإنجيل: بحسب هذه الرّتبة ينتقل الإيمان، الذي يبدأ مع الآب، إلى الابن، وينتهي في الروح القُدس. وفي ما يتعلّق بالفرق بين الأقانيم، الذي يظهر في الرُّتبة نفسها، فهو لا يسبّب أيّ تشويش عند من يعرفون ادراك معنى الألفاظ، إذ ان التسمية «آب» تدلّ على تصوُّر خاص، وكذلك التّسمية «ابن»، والتسمية «روح قدس»، بدون أي اختلاط أو تشوّش في الأداء. انّنا نُعمَّد، كما نُقل الأمرُ إلينا، باسم الآب والابن والروح القدس؛ وانّنا نؤمن كما نعتمد – فمن الملائم أن يكون هنالك توافق بين الإيمان والمذهب؛ فنحن نمجّد كما نؤمن – إذ ليس من الطبيعيّ ان يقاوم التمجيد الإيمان، فما نؤمن به هو ما نمجّده أيضًا.

وهكذا بما ان الإيمان هو بالآب والابن والروح القدُس، وان الإيمان والتمجيد والمعمودية[٥] تتماسك، فلا تميز في التمجيد بين الآب والابن والروح القدس. هذا التمجيد الذي نرفعه إلى طبيعة الأقانيم ليس سوى الاعتراف بالصلاح الخاص بعظمة الطبيعة الإلهيّة، إذ انه ليس انطلاقًا ممّا في وسعنا يكون تمجيدنا للطبيعة الإلهيّـة، بل باعترافنا بصفاتها يكون تمجيدنا لها[٦]. وإذ كان عدم الفساد، والأزليّة، وغير قابليّة الموت، والصلاح، والقدرة، والتقديس، والحكمة، وكل معاني العظمة والرفعة هي من خواصّ كلٍّ من الأقانيم التي نؤمن بها في الثالوث الأقدس، فعندما نجعل فيهم هذه الصفات نمجّدعم بها تمجيدًا. وبما ان ما للآب يملكه الابن، وان كل صلاح في الابن يوجد في الروح القدس، فإنّنا

(٥) أف ٤: ٥. – والتمجيد هو المجدلة المعروفة في الليتورجيا.

(٦) يبيّن غريغوريوس كيف ان التمجيد يجب ان يُرفع إلى الأقانيم الثلاثة، وان الصفات التي تميّز طبيعتهم هي هي، والثلاثة يملكونها على أكمل وجه.

لا نجد في الثالوث الأقدس أيّ فرق جوهري بالنسبة إلى سموّ المجد. وإذا عمدنا إلى التشبيه المادّيّ قلنا: ليس الواحد أعلى والآخر أدنى – ما هو غير مرئي وغير ذي صورة هو غير قابل القياس –، وليس في الثالوث الأقدس تغايرٌ إذا قابلنا ما بين القدرة والصلاح، كما لو كان بالامكان القول بأن في ما بين هذه الصفات فرقًا بحسب الأكثر والأقلّ. من يَقُلْ بأن هذا الشيء أشدّ من ذاك يعترف ضمنًا ان الادنى في الشدّة هو أضعف من الأشدّ، ولكن من الكفر ان يتصوّر الإنسان نوعًا من ظاهر الضعف أو عدم القدرة، سواء كان في الأكثر أو الأقل، في ما يتعلّق بالابن الوحيد والروح القدس. ان كلمة الحقيقة تصرّح لنا أن الابن والروح القدس كاملان في القدرة، والصلاح، وعدم الفساد، وشتّى معاني السّموّ. فإذا اعتُرف لكل أقنومٍ في الثالوث بكمال كل صلاح، كان من غير المعقول القول بأن الشيء الواحد كامل، ثم القول بأنه غير كامل بالمقارنة؛ إذ ان القول بالدُّونيّة بحسب عظمة القدرة أو الصلاح ليس سوى إثبات النقص في هذا المجال. فإذا كان الابن كاملاً، وكان الروح القدس كذلك كاملاً، فالعقل لا يتصوّر كاملاً أقلّ كمالاً أو أكثر كمالاً.

اننا عن طريق الأفعال ندرك طابع المجد غير قابل الانقسام. الآب يُحيي، على حد قول الإنجيل، والابن كذلك يُحيي، والروح أيضًا يحيي؛ قال الرب: «الروح هو الذي يحيي»[٧]. فلا بُدَّ إذن من تصوُّر قدرة تنطلق من الآب، وتنمو بالابن، وتكتمل في الروح القدس. لقد أدركنا ان كل شيء يأتي من الله، وان كل شيء يثبت بالابن الوحيد وفيه، وان قدرة الروح القدس تنتشر في جميع الأشياء «عاملةً كل شيء في الجميع[٨]» على حدّ قول الرسول.

---

(٧) يو ٦: ٦٣.

(٨) ١ كو ١٢: ٦ – ١١.

الرسالة الخامسة والعشرون

إلى أمفيلوخيوس[1]

إنّي الآنَ على اقتناع، بنعمة الله، بأن مشروع «المرتيريوم» على طريق التّحقيق. عساك تريده! ما صُمِّم سيتحقَّق بقدرة الله الذي يستطيع ان يحوّل الكلمة التي يقولها إلى عمل؛ والرسول يقول: «ان الذي ابتدأ العمل الصالح سوف يواصل تتميمه[2]»، فاني أدعوك ان تقتدي في ذلك ببولس العظيم، وتساعدنا على تحقيق آمالنا، فتُرسل لنا عمّالاً كافين لهذا العمل. من الممكن، انطلاقًا من التقدير، أن نُطلع سيادتك على مساحة البناء كله كما يتبدّى لنا، ومن أجل ذلك سأحاول وصفه لك قدر المستطاع.

المصلَّى على شكل صليب ينتهي في جهاته المختلفة بأربع قاعات، ولكن وصلات هذه القاعات غير متلاصقة، على غير ما نجده في سائر ما هو على شكل صليب. في داخل الصليب دائرة بثماني زوايا — دعوتُ هذا الشكل مُثمَّن الزّوايا لأنّه مدوّر — بحيث انّ جهات المثمّن الزوايا الأربع، المتقابلة قُطريًّا، تصلُ بحناياها الدّائرة الوسطى والقاعات القائمة على جهات أربع، جهات المثمَّن الأربع الأُخرى الواقعة بين القاعات المستطيلة الزّوايا لن تمتدّ لتكوِّنَ قاعات، ولكن سيضاف إليها قبًا صغيرًا

---

(١) أمفيلوخيوس أسقف أيقونيوم التي أنشأ فيها بولس الجماعة المسيحيّة الاولى (أع ١٤: ١ – ٣).

(٢) فيل ١: ٦.

بشكلِ صدَفةٍ ينتهي أعلاه بقوس. هكذا يكون في الجملة ثمانية أقواس تَصِلُ القاعاتِ المستطيلةَ الزّوايا والأقباء الصغيرة بالوسط. في داخل أعمدة الزّوايا أعمدة بالعدد نفسه، للزّينة والتدعيم تحمل فوقها أقواسًا مبنيّةً على نسق الأقواس الخارجيّة ومستندة إليها. فوق هذه الأقواس الثمانية سيرتفع البناء المثمّن الزّوايا أربعَ أذرع بسبب حجم النوافذ التي تعلوها؛ وما سيعلو ذلك كله سيكون بشكل مخروطيّ إذ يتحوّل شكل السقف، بفعل صغط القُبَّة، من فتحةٍ عريضة إلى قرنةٍ مروَّسة. عرض كلّ قاعة من القاعات المستطيلة الزّوايا ثماني أذرع، وطولها أثنتا عشرة ذراعًا[٣]، أمّا العلوّ فسيكون ما تقتضيه النسبة مع العرض. الحجم نفسه سيكون للأقسام التي على شكل نصف دائرة. ستكون المسافة بين الأعمدة ثماني أذرع؛ أمّا العمق فخطٌّ بركار يُثبت رأسه في نصف الجانب ويُمرَّر في الأطراف؛ وأمّا العلوّ فسيقرّره العرض ويكون مناسبًا له؛ وأمّا سمْكُ الجدران، خارج المسافات الداخليّة المقيسة، فسيكون ثلاث أقدام؛ وهي ستطوِّقُ البناءَ كلّه[٤].

بهذا العرض الدقيق قدّمتُ لصلاحك مادّة ترفيهٍ لنفسك كما هدفتُ إلى أن تتمكّن من تقدير ما يكون عدد الأقدام (المربّعة) انطلاقًا من سمْك الجدران والأبعاد الداخليّة. وإذ كان لك من الذّكاء النّافذ في كل شيء، والناضج، بمعونة اللّه، في كل ما تريد، يسهل عليك، بعد هذا التعداد الدقيق، أن تقدّر الحجم العام الذي سيبلغه هذا كلُّه، فترسل لنا من البنَّائين عددًا لا يزيد ولا ينقص. أرجو بنوع خاص أن يكون بين هؤلاء

(٣) يكون مساحة القاعات المستطيلة الزوايا إذن نحو ثلاثة امتار وتسعين سنتمترًا على خمسة امتار وخمسة وسبعين سنتمترًا.

(٤) سمْك الجدران نحو ٩٠ سنتمترًا.

من يُحسنون بناء قبّة بدون هيكل(٥). علمتُ أن بناءَها على هذه الطريقة يجعلها أشدّ متانةً ممّا لو كانت على هيكل. النقص في الموادّ الخشبيّة أوحى إلينا بأن نُغطّي البناءَ كلّه بسقفٍ من حجر، إذ انّ المكان يخلو من الخشب الصالح لهيكل البناء. اعلم، يا صديقي المُخلِص، أنّ بعض النحّاتين هنا، وعددهم ثلاثون، وعدوني بأن يعقدوا معي عقد عمل نحت مقابلَ قطعة ذهب في اليوم لكلٍّ منهم بالإضافة إلى الطّعام. ولكنّ هذه الطريقة بنحت الحجارة ليست في إمكاننا، ومادّة البناء ستكون الطّوب والحجارة العاديّة فلا تقتضي الوقت الطويل لجمعها وإحكام تنسيقها. أنا أعلم أن العمّال عندكم أشدّ مهارةً وأقلّ كلفةً من الذين عندنا. يقوم عمل نحّاتي الحجارة ليس على عمل الأعمدة الثمانية التي يجب صقلها وتزيينها وحسبُ، بل على جعل أُسُس الأعمدة أيضًا على شكل مذبح، وتيجان الأعمدة منحوتة على الأسلوب الفنيّ الكورنثيّ. مدخل من الرّخام المشغول على نسَق لائق، فوقه بوّابة مُزيَّنة بأشكال فنيّة معهودة تسير مع نقوش السّطح المعمّد – لا جرَم أننا سنقدّم نحن الموادّ، وعلى الفنّ ان يشكّل المادّة – أخيرًا أعمدة الرّواق، التي ليست أقلّ من أربعين، يعالجها نحّاتو الحجارة.

إذا أدّى العرضُ الذي وضعتُه غرضَهُ من التدقيق والتشخيص، كان بإمكان قداستك، وقد وقفْتَ على ما نحنُ بحاجة إليه، ان تُطمئننا بالنسبة إلى العمّال. إذا كان أحد العمّال يريد ان يتعاقد معنا، فليحدَّد له، إذا أمكن ذلك، مادّة عمل كل نهار وكميّتها، حتى إذا توانى في العمل وتهامل فيه، لا يستطيع الادّعاء بأنه عمل كذا أيّامًا، ويطالب بأجر هذه

(٥) هذا يدلّ على ان القباب لم تُقم أولاً على «صقالات» بل بُنيَتْ من حجارة وطُوب.

الأيّام. أعلم أننا نبدو حقيرين في نظر الكثيرين عندما ندقّق في موضوع العقود؛ ولكن أرجو المعذرة، إذ ان «مامّون» (المال)، وقد أكثرنا من تشهيره، قد ابتعد عنّا، ابتعادًا شديدًا، منتقمًا، على ما أظنّ، من شدّة تهكُّمنا به، وانفصل عنا وكان بيننا وبينه هوّة عظيمة، أعني الفقر، بحيث انه لا يستطيع الاقتراب منّا، واننا لا تستطيع اجتياز الهوّة والاقتراب منه. لهذا السبب أعلّق أهميّة كبيرة على اعتدال العمّال، فنتمكّن بذلك من تحقيق المشروع الذي ننوي القيام به من غير ان يحول الفقر دون تحقيقه – هذا الشر الذي يمكن الثناء عليه وتمنّيهِ. في هذه الأقوال بعض المُزاح. وفي ما يتعلّق بك، يا رجل الله، طَمْئِن الجميع في ما هو من شأن كرَمِنا وتسديدنا للأجور الكاملة، وذلك عندما تُعقد الاتّفاقات مع العمّال على أساس ممكن وشرعيّ. لن نتلكّأ عن بذل كل شيء لأن الله، بفضل دعائك، سيفتح لنا نحن أيضًا يد بركته.

الرسالة السادسة والعشرون

من السفسطائي ستاجيريوس إلى الأسقف غريغوريوس

الأسقفُ كائن صعبٌ صيدُهُ بالشبكة، وأنت بقدر ما تتفوّق على غيرك في البلاغة، تبعث فيّ خشيةَ وقوفك بحزم في وجه طلبي. ولكن، أيها الصّديق الرائع، اجعل إلى جانبٍ حذقَك في النقض، وبرهنْ عن سخاء، وإذ كنّا مفتقرين إلى روافدَ لسقف المنزل – لو كان المتكلِّم غيري من السفسطائيين لتكلّم عن سُمُك أو عن أوتاد، مؤثرًا الألفاظ الصغيرة على الخضوع للضرورة – هب لنا مبلغ عدّة مئات: ان ذلك في إمكانك ولو اضُطررت إلى اقتطاع ذلك من الجنّة، وإنّي، إذا لم تُعطني، سأقضي الشتاء في الهواء الطَّلق. برهِنْ، أيها الصديق، عن نُبل في النفس واكتُب رسالة إلى كاهن أوزيانا تأمره فيها بأن يُنيلنا ما نطلب.

الرسالة السابعة والعشرون

جواب القديس غريغوريوس للسفسطاني

إذا قيل ان الاستفادة صيدٌ بالشبكة، وإذا كان هذا هو معنى التعبير الذي واجَهَنا به حِذْقُك السُّفسطائي بعدما استخرجه من تأمُّلات أفلاطون الصّعبة المنال، فتفحّص، أيّها الصديق الرَّائع، من هو الأصعب اصطيادًا بالشبكة، نحن الذين تهزّنا رسالة، أو رهط السُّفسطائيّين الذين مهروا في فنّ الكلام والإفادة من الكلام. مَن مِن الأساقفة فرض ضريبةً على خُطَبه؟ من جعل تلاميذه مصادر دَخل؟ السفسطائيون يفخرون بذلك، عارضين حكمتهم للبيع كما يعرض الحلوانيّون حَلْواهم المعسَّلة! إنك ترى كل ما أنت قادر عليه بقوّة أقوالك الموسيقيّة الخارقة، أنت الذي استطعتَ أن تثيرني أنا الشيخ فأثب وأثور، والذي تستطيع ان تبعث على الرقص من لا يعرفون الرقص.

من جهتي أمرتُ أن يُؤَمَّن لك، أنت الذي تتباهى في خُطَبِك بالحروب الماديَّة، روافِدُ بعدد الجنود الذين حاربوا في التَّرموبيل[1]، وكلها بالطول المناسب، «ويمتدّ ظلُّها إلى البعيد» على حدّ قول هوميروسك، وقد وعدني الكاهن القدّيس ان يُسلِّمَكَها كاملةً سليمة. لم أقل عشرة آلاف ولا عشرين ألفًا، ولكن بقدر امكانات المسؤول، وبقدر ما يمكن المُستلِم أن يدفع.

---

(١) أرسل غريغوريوس ٣٠٠ رافدة بعدد أولئك المحاربين الذي نقلته الأخبار.

الرسالة الثامنة والعشرون[1]

إنّ الذين يتذوَّقون الورد – على ما هو مألوف عند من يهوى الجمال – لا يتنكّرون لشوكه الذي تستمدُّ منه الزَّهرةُ نموّها؛ وقد سمعتُ أحدًا يقول – سواء كان كلامه مُزاحًا أو جدّيًّا – في هذا الموضوع: ان الطّبيعة قد جمعت ما بين الزهرة والشوك ليكون هذا الشوك الحادّ مهمازًا حبّيًّا يحفز هواة الزهرة الذين يريدون قطفها على ازدياد الرغبة في طلبها. ولكن ماذا تعنيه هذه الوردة التي حشرتُها في رسالتي؟ لست بحاجة إلى معرفة ذلك إذا كنت تتذكّر رسالتك التي كانت تحتوي زهرة كلامك ناشرةً ربيع بلاغتك كلّه، والتي كانت تنتصب أشواكها علينا ترافقها الملامات والاتّهامات. ومع ذلك فانّ شوك أقوالك بالنسبة إليّ هو مدعاةُ متعة وبهجة لأنها تزيد اضطرام رغبتي في صداقتك. فاكتُب، واكتُبْ دائمًا كما يروق لك. سواء كان ذلك لتكريمي – كما اعتدتَ أن تفعل – أو كان لوخزي قليلاً بملاماتك. يهمّنا ان لا ندع لك مجالاً في ما بعد لِلَوْمنا كما لم نفسح لك بالمجال الآن، إذ اننا قمنا، قبل سفرنا إلى المشرق[2]، بكل ما يروقك وكل ما يقتضيه العدل. على ذلك يشهد أخونا المشترَك

---

(١) هذه الرسالة جواب رسالة مفقودة قد تكون لشخص استبطأ غريغوريوس في مُهمّة أُسندت إليه، فيجيب غريغوريوس نافيًا.

(٢) إشارة إلى سفر غريغوريوس إلى البلاد العربية سنة ٣٨١.

أفَغْريوس الكليّ الوقار – الذي يحمل إليك هذه الرسالة والذي أطلعه جماعتُك عل كل شيء لأنهم كانوا حاضرين – ويشهد على تقديرنا للعدل، وشكر جميع الذين يديرون مصالحك على ما جرى.

الرسالة التاسعة والعشرون

إلى شقيقه بطرس أسقف سيبسطية[1]

بكثير من الجهد وجدتُ بعضَ الفراغ للاهتمام بجسمي بعد عودتي من أرْمينية، وتجميع المُدوّنات التي خَطَطْتُها، بتحريضٍ من عقلك الواعي، وأمليْتُها متناولاً فيها أفنوميوس. لم أنقض جُزأي الكتاب؛ لم يُتح لي من الوقت ما يُساعدني على ذلك لأن الذي أعارني كتاب الهرطقة عاد فطلبه حالاً بكل وقاحة، ولم يمنحني الوقت الكافي لنسخه والتمعُّن فيه. لم أخصّه إلاّ بسبعة عشر يومًا، وهي غير كافية للاطلاع على مضمون الجزأين. وإذ كان الكثيرون ممّن يغارون على الحقيقة، وممن لا أدري كيف بلغهم أنّنا آخذون في دحض آراء الكتاب، يلحّون علينا بالردّ في غير إبطاء[2]، رأيتُ انه من الأفضل، قبل كل شيء، أن ألجأ إلى مشورة عقلك في الموضوع: هل يجب أن أثق بما أسمعُه من أكثر الناس أم يجب الاقتصار على موقف آخر؟ ما يوقعني في الحيرة هو ما يلي: وصلني كتاب أفنوميوس في مدّةِ وفاة القديس باسيليوس[3]، ولمّا يزل قلبي مضطرمًا ألمًا وحزنًا على ما ألمَّ بالكنائس من مصاب عامّ. أضف إلى ذلك أن

---

(١) ليس من الثابت انّ المرسَل إليه كان أسقفًا إذ ذاك بدليل ان غريغوريوس يتوجّه إلى «عقل» أخيه ولا ينعته بما يدلُّ على أسقفيّته، كما سنرى ذلك في جواب بطرس.

(٢) لم يتوقف الجدل في حقيقة الثالوث عند اللاهوتيين بل تعدّاهم إلى عامّة الشعب.

(٣) يُعتقَد أن باسيليوس عرف كتاب أفنوميوس قبل وفاته.

أفنوميوس لم يكتفِ بكتابة ما بدا له انه جوهر عقيدته، ولكنّه تطرّق إلى الشّتائم التي أمطرها على أبينا[٤]. لهذا، وقد آلمني ما قاله بوقاحة، وقفتُ من المؤلّف موقفَ استياء وحدّة. وكما أن أكثر الناس يعرفوننا على غير هذا الوجه، لكوننا قادرين على تحمُّل من يوجّهون إلينا وقاحاتهم، وذلك بلزومنا جانب الاعتدال في التعامل، وذلك تمشّيا وتعليمَ هذا القدّيس، واني أخشى، على أثر ما هاجَمْنا به خَصْمَنا، أن نظهر لقرّائنا بمظهر الحديثي العهد بالأمور، نغتاظ لشتائم الوقحين. والذي من شأنه ان يعذرَ موقفنا هو أننا لا نغتاظ لأمر يتعلّق بنا، ولكن لأقوال قبيحة وُجّهت إلى أبينا. قد يكون الاعتدال في مثل هذه الحال غير قابل العُذر لا الغيظ.

إذا بدت مقدّمة كتابي خارجةً عن موضوع الصِّراع نوعًا ما، فإني أظنّ أنّ الناظر إلى الأمور بعين الانصاف يتقبّل ذلك ولا يُنكره. لم يكن بُدٌّ من الدّفاع عن سُمعة باسيليوس الكبير التي حاولت تجاديف العدوّ ان تنال منها، كما لم يكن بُدٌّ من نشر الصراع في شأنه هنا وهناك من الكتاب. وعلى كل حال فالناظر في الأمور كليًّا يرى أن هذه الأقسام تدخل ضمن النقاش. وإذ كان لكتاب العدوّ هدفان: التجريح بنا والتنكّر للعقيدة، كان لا بُدّ لردّنا من نقض الأمرين. وسعيًا وراء الوضوح وعدم المسّ بترابط النقاش اضطُررنا إلى جعل الكتاب قسمَين: اهتَمْمنا أولاً للدفاع عن أنفسنا وردّ الاتّهامات الموجّهة إلينا، ثم انتقلنا – على قدر ما استطعنا – إلى ما هاجم به العقيدة. لا يتوقّف البحث عند الردّ على الآراء الهرطوقيّة، ولكنه يتضمّن إلى ذلك عرضًا لعقائدنا. رأينا انه من المُخزي، في حين لا يتستّر الاعداء في حماقاتهم، أن لا نتكلّم عن الحقيقة بجرأة. فليحفظْكَ الربّ للكنيسة صحيح النفس والجسد.

---

(٤) أي باسيليوس.

الرسالة الثلاثون

من بطرس أسقف سيبسطية إلى شقيقه غريغوريوس النيصّي

من بطرس إلى شقيقه غريغوريوس الكليّ التّقوى سلامٌ في الربّ.

بعدما قرأتُ رسالة قداستك، ولمستُ في دحضك للهرطقة غيرَتَك على الحقيقة وعلى أبينا القدّيس (باسيليوس) رأيتُ أن هذا العمل ليس من صُنع مقدرتك، بل من صُنع من قرّر أن يُنادي بالحقيقة في ما بين عبيده. وكما أقول بأنه من الحقّ أن ننسب الدّفاع عن الحقيقة إلى روح الحقّ[1] » نفسه، كذلك أرى انه من الواجب ان نردّ التهجُّم على الإيمان القويم لا إلى أفنوميوس بل إلى أبي الكذب نفسه، يبدو لي أيضًا أن من كان «منذ البدء قتّال الناس[2] » وتكلّم بلسان هذا قد شحَذ سيفَهُ وأصْلَتهُ على نفسه؛ فلو لم يتجرّأ هذا على الحقيقة إلى هذا الحدّ لما حملك أحدٌ على التحرّك للدفاع عن عقائد الإيمان. والذي «يأخذ الحكماء في مكرهم[3] » أعطاهم، لكشف زيف مذهبهم وضعته، أن يتطاولوا على الحقيقة ويصخبوا عبثًا[4] بهذه الكتابة الزّائفة.

---

(١) يو ١٤ : ١٧.

(٢) يو ٨ : ٤٤.

(٣) ١ كو ٣ : ١٩.

(٤) أع ٤ : ٢٥.

هكذا، بما أنّ «الذي ابتدأ العمل الصالح سوف يواصل تتميمه(٥)» لا تَعْيَ في خدمة قدرة الرّوح، ولا تدع نَشَاط من يحاربون مجد المسيح نصفَ سليم، بل اقتدِ بأبينا الشريف الذي، على مثال فِنحاس الغيور، قضى بضربةٍ واحدةٍ من ردّه على التلميذ والمعلّم(٦). فأعمِلْ أنت بشدّةِ يدِ بحثِك سيفَ الروح(٧) في كتابَي الهرطقة، حتى لا تُخيف الحيّةُ المسحوقةُ الرَّأس بُسطاءَ القلوب بتلويح ذنبها. لقد دُمِّر القسم الأوّل من الكتاب، فإذا لم يُمحَّص القسم الأخير يذهب الكثيرون إلى أن فيه بعض الحقيقة.

أمَّا السّورةُ التي تظهر في بحثك فهي تُولي قوى النفس ما يُوليه الملحُ للمذاق. وكما أن «الخبز التَّفِه بغير ملح لا يؤكل(٨)»، على حدّ قول أيّوب، كذلك البحث الخالي من أقسى قوارص كلام الله فإنه يكون بلا فائدة ولا قوة برهان. فإلى الأمام اذن انت الذي أصبحتَ المثال الصالح للأجيال القادمة، وبيّن كيف يجب ان يسلك أصحاب النفوس الشريفة في الدفاع عن آبائهم الأفاضل. لو كنتَ أظهرتَ مثلَ هذه الغيرة في حياة القدّيس، وهاجمتَ من تواقحوا وتهجّموا على شهرته لما كنت نجوتَ من تهمة التزلُّف والمُمالقة. ولكن الآن بنُبل نفسك وصدقها، وبعرفانك جميل من قادك إلى النّور بولادةٍ روحيّة تتجلّى غيرتُك على الفقيد وسخطك على أعدائه. كُن مُعافًى.

---

(٥) فيل ١ : ٦.

(٦) عدد ٢٥ : ٨.

(٧) أف ٦ : ١٧.

(٨) أي ٦ : ٦.

الفهرس

المطبعة البولسيّة
جونية - لبنان

مَنشُورَاتُ المَكتَبَة البُولسِيَّة

جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب. ١٢٥

هاتف: ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦

بيروت – شارع لبنان – هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣

زحلة – الحمراء بلازا – تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧